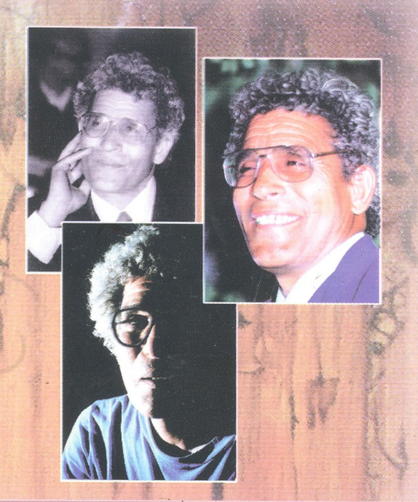
2002
مهرجان
القراءة
للجميع
مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع.. مكتبة الأسرة

محمد عفيفى مطر



الأعمال الإبداعية

قصائد مختارة

قصائد مختارة

قصائد مختارة

محمد عفيفى مطر



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

قصائد مختارة
محمد عفيفى مطر

الغلاف
والإشراف الفنى
الفنان : محمود الهندى
الإخراج الفني والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
المشرف العام :
د. سمير سرحـــان

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقـافـة
وزارة الإعـلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزار ة الشـــباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصداراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً في المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى «مكتبة الأسرة» .. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ **سوزان مبارك**..

د. سمير سرحان

من ذاكرة الأرض

محمد عبيد

- شهيدُ الثورة العُرابية وبطلُها الفذُ
- وشرارتها التى أضاءتْ وانطفأت لحظة الهزيمة
- لم يكن له أبناء، وليس له قبر ولا نُصُبُ ذكرى
- من كفر الزيات



صوت ما

بوابةُ الذكرى، وثقبٌ في الجدارْ
تنسلُّ منه نُسَيمَةٌ وشعاعُ نور
وكتابُ حزنٍ سُطِّرتْ آياتُه فوق الصدور
مدناً مخرَّبةً وأبطالاً قلوبهمو بريح الموت مازالت تدور،
موالَ ثأرٍ مزقتْ أصداؤه صمتَ الحقولْ
نبشتْ قبورَ الطمي .. فارتجفَ الفضاء
وتجاوبتْ في الليل حمحمةُ الخيول
ومآذنُ الجميز أذّنَ فوقها جوعُ البشر

ومشانقُ الصَّفْصاف أرخَتْ حبلَها فوق الجسور

صبتْ نواعيرُ القرى لهباَ .. وسالتْ من حوافيها الدماء

حتى استحمَّ الأفقُ واغتسلَ البشر

حتى اشرأَبّتْ من خرائب دورنا أيدى الجياع

وتسلقت صمتَ الجدارْ

نظرتْ وراء الأفق أحصنةٌ توهَّجَ فى حوافرها الشرار

ومآذن الجميز أذَّن فوقها جوعُ الرياح

وحكايةٌ السوق التى ملأتْ بحارَ الشمس من رمم

العبيد

واستضْحك الطمىُ المعذَّبُ حين فُجِّرت القبور

واستضحكتْ رممٌ، وغنتْ فى حناياها النذور

وتحركتْ أيدِى الخرائب والشوارعُ والحقولْ

زحفتْ.. بأيديها قميصٌ فوقه بقع الدماء

زحفتْ.. وجوهاً لوَّحتْها الشمس لوَّنها الترابْ

بعيونها كُتَبتْ صحائفُ من عذاب

حُفَرتْ بإزميلِ من اللهب المدبب فى الصدور

زحف الجياعُ وهبَّ إعصارُ حبيسٌ فى الشجر

والشطُّ هرولَ والسنابكُ والبشر
لهباً وصوتاً كان محبوساً بقلب الطمى من عهد سحيق
قمحاً تَشَهَّى فى لِيالى الحقل ساعات الحريق،
طيناً أضاءت فى ملامحه ليالى الإنتظار..

* *

الليلُ وحشٌ رابضٌ فوق الصخور
واثنان من جند القرى يتحاوران
يتحسسُان خلال همسهما وجوهَ الغائبين،
والأهلَ والدور البعيدةَ والقلق
وحكايةٌ الوجع الذى نَهَبَ الحقولْ
والناسَ والزمنَ البخيلْ
وحكايةٌ السوق التى ملأت بحار الشمس من رمم العبيدْ
جاءوا هنا مُرْداً بأظهُرِهِمْ عصا النخاس غورٌ من عذاب
صبيانَ مأساة، وصفُراً جائعين
فاستقبلوا بين القصور الشُّمِّ أيامَ الشاب
فرسانَ وادٍ ميتٍ
أطفاله فى الطين من عهد بعيد

جاءوا هنا مُرْداً.. سلاسلُهم تئنُّ

فأصبحوا فرسانَ وادينا

وصاروا غالبين

القمحُ والإنسانُ من عُبْدانهم والطمىُ،

ألَّهَ عهدَهم جوعُ السنين..

* *

ريحُ الردى دارتْ مُعَبَّأَةَ الإزار

بنذالة الإنسان وهو يبيع إنساناً بصلَصلَة النضار

والليلُ يشرب من بقايا الأعين الصماء وسوسة النهار

والرملُ يشرب آهةً نطقتْ بغمغمة الحقول

والرملُ يقَّهقَهُ: آه ياجند القرى

والليلُ يصرخُ: آه يا نبت الحقول

أزوْادهم من غمغمات الطمى أَبلاها الردى

لا قوه زحفاً، لم يُشَتّتْ شملهم فى الليل تلويحُ الفرار

واستتنفرتْهم أوجهٌ فى الريح،

جميزٌ و دارْ

كانوا وكان الموت والرملُ الجريحْ

أقسى من الموتِ ارتعاشُ الموتِ فى الشَّلْوِ الذبيح

شيئاً فشيئاً يسكتُ اللجَىُّ والدنيا تغيب
شيئاً فشيئاً يسبح العالم فى بحر الضباب
يمتدُّ من مجهوله الصامت حقلٌ وطريق،
بستان جميزٍ، ودورٌ شادَهاَ الموتُ الرقيق
للنازحين إليه من جند القرى..

الليلُ طنَّبَ خيمةً ورمى إزارْ
فوق الصيَّاصى الهاويات.. ولا قرار
لا شىء.. غير مقابر الأحلاَم. والصمت الممدَّد، والحراب
ولهاثِ أصداء تكسَّر سرُّها فوق الشِّعاب
تنسلُّ، تسترق الخطى، وتدق أبواب السكون
تلجُ الخرائبَ والديارَ المطرَّقةَ
فتفجِّر الحلمَ المدمىَ فى دموع النائمين
رؤيا قلوب فى الدما والموت مازالت تدور
مدناً مخربة وأطلالاً توارى جرحها

تبكى وتدفن قصة الجبروت فى قبر الفضاء
ليست عليه شواهد غير اصفرار الموت فى وجه البشر
ورواية الغضبِ المؤرِّق فى الصدور
ومآذنِ الجميزَ يسقط تحتَها فج الثمر..

* *

صوت امرأة

عَرَقُ الرجولة لم يزلْ فى الثوب، أصداءٌ عميقاتُ الرنين
مازلْنَ فى صمت الغرفْ
وتهدُجُ النبرات فى الأركان، غمغمةُ المساء
تطوى ضجيج الصبح.. تترك عالم الأشياء يحكى
ما يريد
تتحدث الجدرانُ، تنطلق الستائر بالغناء
تحكى الأرائك والكراسى والتحفْ

قصصاً عصارةُ عمرنا فيها ..، فتصحو الذكريات

وتدور بي، وتدور.. حتى تستقرَّ على طريق المستحيل

أيامُنا ورقٌ يموت على طريق المستحيل

بالأمس جاءَ.. ففرَّ من قلبي الألم

والحزنُ طار إلى الفضاء

قولي أيا جدران.. كيف نسيتُ ـ لما جاء ـ وجه المستحيل

قولي أيا جدرانُ.. كيف أتى المساء

وتراقص الضوءُ المضبَّب فوق أكتاف الشجر

وتشعبتْ طرق الكلام وطَنَّ في الكون ابتهالْ:

«الله يمنحنا ولو طفلاً يعلمنا الضحك»

فتعود في الضوء المضبَّبِ صورةُ الوجه الغريب

فكأنَّ طفلاً بيننا

وكأن صوتاً في دمي يبكي لأن الطفلَ مزمومُ الشفاه

وكأن صوتَ الكونَ يغسلُ جرْسه قبل الصلاة

ويقول مسحورا لنا:

«الله يضحك حين يبتسم الصغار»

* *

اللفظةُ الخضراءُ مازالتْ ترنُّ بلا انقطاع،
أنفاسُه المتردِّدات، ودفءُ ضمَاتِ الوداع
وحسيسُ أصداءٍ تنادتْ باللقاء
أرهفتْ سمعى..

ربما صَهِلَ الجوادُ مع الغروب
أو ربما سبقتْه رنَاتٌ من الضحك الطروب
أو ربما يأتى إذا الليل انتصفْ..

* *

صوتٌ ما

خفقات أيدى النخل والشجر الحزين

والريحُ فيها غمغماتٌ غامضاتْ

سمعوا بها صوتا تبلّله الدموع

نادى حزيناً: أيها الأحبابُ قد آنَ الرحيلْ

فإلى اللقاءِ

إلى اللقاءِ

إلى اللقاءْ

* *

من ليلتين رأيتُه،

وتوهجت عيناه في قلب الظلامْ

ولمحت في شفتيه رعشةَ الابتسام

وأزاحَ معطفَه وقالَ:

أنا هنا من ذلك اليوم البعيد

مازلتُ أمشي في المساء

فوق النخيل وفوق أطراف الشَجر

أمشي هنا..

أرْعى السواقي والحقول

مازلتُ حيا لم أمتْ.. جرحي يسيلْ

عاماً فعاماً لم يزل ثأري ضراماً في الرماد

رَوّيْتُ سيفي بالدم القاني وثأري لا يموتْ

حاربتُهم سبعين عاماً..

آه يا ذكرى الزمان

سيفي تؤرقُه الليالي الماضيات

فأعودُ أمشي في المساء

فوق النخيل، على ذؤابات الشجر

وأطوف بالوادى..

رفيقى.. عِمْ مساء..

١٩٦١

* * *

«من ديوان مجمرة البدايات»

الجوع والقمر

-١-

هبت هياكلهم من الأرض البوار

عظما رماديا، بقايا من كفن

فالجوع مدٌ أصابع النيران حبلاً في النمور

والطمى أزٌ، كأنه حطب بقلب النار

صوت مرهف دامى الصدى فى الكون طنّ

يستنفر الموتى، يشق عن الجماجم سكرة الأرض البوار

والصبية المتوحشون تخلعت أظفارهم فى

الأرض بحثا عن جذور ميتة
وقفوا قليلا، حدقوا فى الصمت، أعشاهم
صراخ الضوء فى عين السماء الباهتة
خطفتهم الرؤيا فناموا فى النهار
والريح أفعى تغتلى أحشاؤها جوعا،
فدارت والْتوت حول الجسور
فحت، عوت، نادت لتوقظ غفوة الموتى:
لقد جاع الصغار
جاع الصغار
جاع الصغار
فانشق فى ليل القرى ملح القبور.

هبت هياكلهم من الأرض البوار
وتحلقوا حول القرى
أسوار عظم فى بقايا من كفن
جاسوا خلال الدور، ساروا فى الحقول الخالية
نادوا .. فرد صدى أبحٌ فى الظلام

غنوا.. بكوا.. شقوا الجيوب البالية

(لا شىء يأكله الصغار

فاترك عباءتك القديمة يا قمر

واسرق لهم بعض الذرة

بعض الذرة..)

ـ ٢ ـ

الأمهات بلغن سن اليأس فى صمت القرى

عاما فعاما والسراويل القديمة فى انتظار

فخرجن فى ليل القرى

يخمشن أفخاذا ويلطمن الفروج

يحلبن أضواء البروج

يشهقن إغراء ويبكين ابتهالا للقمر

(لا تلتفت للحور.. لا تأخذ مناديل السفر

منهن، جئنا يا قمر

ادخل هنا،

واسق السراويل القديمة يا قمر..)

ـ٣ـ

الصبية المتوحشون

تركوا أصابعهم بقلب الأرض،

قاموا يصرخون:

(إن كنت تسمعنا فألق جماجم الموتى التى

رصت كؤوسا فوق مائدة السماء

دعها بما فيها من الخمر التى عصرت لهيبا فى دماء

واجه بعينيك العيون الغاضبة

إن كنت تسمعنا فثبِّت عينك الجوفاء فى عين البشر..)

ـ ٤ ـ

الموت يمشى فى القرى

خطواته فى الريح جسر لا يرى

يمشى بطيئا، يخلع الأكمام، يرمى ثوبه فوق الفضاء

أنفاسه دارت لتطفىء كل مصباح مضاء

فجرى إليه الصبية المتوحشون

لاذوا برجليه .. فغمغم فى صفاء

ناحوا له فجئا وغمغم وابتسم

وأضاء فى عينيه مصباح الألم

صاحو به:

هذا قمر

فمشى بهم.. خطواته فى الريح جسر لا يرى

ألقى عباءته عليهم وانتفض

لم يشعروا بالموت وهو يطير فى جوف السماء

رقصوا بكفيه ونادوا:

(يا قمر

هبنا الذرة

هبنا الدرة...)

١٩٦١/٧/٢١

من ديوان «الجوع والقمر»

دلتا النهر الأسود

- ماذا يملأ عينيك الطافحتين بشمس الجوع؟!

يملأها شبر من أرض خضراء:

يملأها شباك يشرب من حنجرة الريح

وشرارة برق تخطف قلبى الطائر فى الظلماء

يملأها أن أتخبط بين نصال الرعد.

مرتعشا أطرح فوق الأرض قميص دماء.

- الأرض تدور على محورها المائل،

لن يأتينا فصل الرعد

وشتاء البرق الأخضر لن يأتينا قبل الصمت.

- :آهِ: لو كنت ملاك الموت

لغسلت الأرض من الضوضاء

وشنقت لغات الأُرض

ونصبت مقاصل فوق الجسر، بنيت مدائن صمت.

- :ماذا يغريك فتبحث عن فاكهة السنط؟!

- الليل القاسى ينصب لى أشراك اللغة الإنسية

يشنقنى الليل بما ينهدل من الأجراس الغبشية

يطرحنى تحت سنابك صوت من فخّار

وأنا أسمع ريحا تولد فى الآبار

أنتظر هبوب اللغة السفلية..

* * *

يسألنيِ شجر الصفصاف:

(من أية ريح ملعونة

امتد الخنجر .. مزقِ ثديى النابت فى الأعماق

وانسربت حية ملح تنهش رحمي الثمرية

فأظل على شطآن النهر بلا أزهار

وأموت بسن اليأس بلا أثمار!!)

يسألنيِ شجر الجميز:

(من يحمل عنى سلة أثمارى الذهبية

ويرواغ، يترك تحت الصهد صغارى الأيتام!!

من يأخذ منى خشبى الطيب كى يصنعه مقصلة خشبية

أو يصنع منه النعش أو التابوت!!)

يسألنى القمر السهران:

(من يملك وجه الأرض فيحرم من

ثدييّ صغارى الغرباء!!)

* * *

أقدامى انغرست فى الصخر

نهداى انفتحا فى أعماق البحر

وركعت ألملم شعرى الأخضر فى الظلماء

وأنادى الصمت فيدفق بالأبناء.

ألقمهم ثدى السنط على شطآنى الشرقية

وأقص عليهم بعض حكايا الجوع الطافح بالآلام

فتحط عليهم شمس الرعب

أدفنهم بعد العصر بشطآنى الغربية

مضمومى الأيدى.. يرتعشون بأكفانى الكتانية..

* * *

من أعلى الوادى انطلق الفارس ذو الأجراس

يستجمع فى عينيه الصيف التائه فى الصحراء

يرتاع لما تنطقه الأرض من اللهجات الرملية

تضحكه جنيات ترقص فى خلجان الريح

فى الليل يغمغم بالأحلام

فى الصبح يصلصل بالآلام

ويجوس خلال مدائن صمت وحشية

وتضيق عليه البرِّية..

* * *

- ماذا أبقاك هنا يا طين الأرض السوداء
ماذا أبقاك فلم تهرب حتى أرصفة البحر!!
- أبقانى جرح فى الأعماق
محفور فى صلبى ينزف عشبا للأغنام
وصغارا للأرحام
وفطائر عيد للأيتام
ورجالا سمرا ونساء يغمرهن العالم بالأحلام
وحدائق شجر لا يهجرها ثمر طول العام.
- ماذا يبقيك الآن وقد طمرتك الريح
واندمل الجرح الطيب فى جنبيك
ماذا يبقيك ورعب العالم يصرخ في عينيك؟!
- يبقينى حلم بالأمطار
وفصول الرعد الطائر بالأثمار
أنتظر ثمار السنط وأزهار الصفصاف

* * *

ينحدر الفارس ذو الأجراس
من قلب المدن الوحشية

يتكىء على أسوار الريف

(ملعون - إن لم يثمر - شجر التين)

يذهله صوت يندب فى الآبار

(ما أقسى الأرض إذا لم ترحم صوتا يرقد فى الأغوار)

تنغرس خناجر صمت فى جنبيه

(موحشة أنت .. أيا أطلال)

يشعل غليونا، ينظر صوب الشرق وصوب الغرب

(من أى سماء تشرق شمس الرعب؟!)

- : ماذا قالت أجراس الموسيقى السفلية

حتى يهتز السيف بيمناك؟!

- : أجراسى تندب فى مرثية الليل

أجراسى تبكى جرح الأرض السوداء.

- : والسيف الغاضب فى يمناك؟!

- : إنى أنتظر الليلة فى أبواب الرعد

أنتظر عبور الأشباح لأقتل شبح الصيف الأسود

وأحاكم شجر الصفصاف

وأقيم صغار الأرض شهودا حين أميت الجميز

وأعيد الجرح النازف فى أعماق الأرض.

* * *

أنصت يا شجر الصفصاف

وارفع خصلات الشعر الطائر واكشف هذا الصدر

آ.. ها!! أين النهدان، وأين أضعت الأرداف؟!

من أخرس فيك اللبن الحى.. فعشت على

شطآن النهر بلا أبناء

وغفوت الليل فلم تتراكض فوق الأرض سيولا بشرية

وأضعت عصيرا كان يبشرنى بالنسوة والأبناء!!

أهدرت دماءك ياصفصاف

لتعود امرأة حبلى أو أطفالا يغترفون حليب الأرض.

(فليقتل شجر الصفصاف

فليقتل شجر الصفصاف

فليقتل شجر الصفصاف)

أنصت يا شجر الجميز

فى أى عصور الرعب تعيش فتحمل طيبة هذا القلب!!

أثمرت سلالا ذهبية
وغفوت لتغرق فى الأحلام
فأضحت طعام الأيتام
أهدرت دماءك يا جميز
لتعود رجالا وخناجر..
(فليقتل شجر الجميز
فليقتل شجر الجميز
فليقتل شجر الجميز..)

* * *

صرخت عذراء الأرض المهجورة:
(فارس قلبى الطيب
لم يأت من الأسفار الليلية
قتلته الأيدى الشبحية
نثرته رمادا فى الغيطان وفى أصلاب الدور
سكبت دمه فى الآبار
أكلت عينيه الأطيار
شرب النهر الصامت خمر القلب
آه.. يا فارس قلبى الطيب

صوتك فى أعماقى يعشب ليل نهار
يبتهل نداؤك: «ياصفصاف
أثمر حتى نطعم يوم العرس»
تخضر صلاتك: «يا عنقود البرق
املأ كأسك حتى نشرب يوم العرس
واعزف ياقيثار الرعد
حتى نرقص للموسيقى السفلية.»)

* * *

- احلم أن امرأتى العاقر وضعت بنتا حبلى
بعد قليل وضعت طفلا يحمل خنجره فى
االصبح ويذهب للكتاب
أحلم أنهما رضعا ثدى الأرض وثدى الشمس
قالا شيئا فانفجرا فى ضحك صاف
- ماذا قالا؟
- :قالا لغة لم أسمعها فى أركان الأرض..

١٩٦٥/١/٩

من ديوان «الجوع والقمر»

الوجه الهارب

جُننْتُ إليكَ وانتظرتْك تحت لفائف الميلاد غرغرةُ
االطفولة كلَّ منْعطَفٍ من الجوع
وفوق أسرةٍ من رعبى المسقىً بالصخب
لأنى كنت تحت سنابك الميلاد مرميا بلا أبوين
ومنطرحا على أرض بلا ثديين
ومنطفئا تمزقنى الرياح، تسوقنى
بالرعب من باب إلى باب.

* * *

جئتُ إليكَ يوم تفتحت عيناىِ فى أرض بلا شمس

وحين تهدلت جُمّيْزَةَ الظلمة

وألقتْ فى دمى بعصيرها الشبحىً حتى

أثقلتنى بالرؤى والخوف والصمت

واسكرنى زفيفُ الريح بالمقت

فلم أحلم بغير ربيعىَ المخضرً فوق شواطىء الموت

على شفتىً تنكسر الحروفُ،

تطير غمغمةُ التوجع دونما صوت

وفى جنبىً تنطفىء البشاراتُ

وتنغرس الخناجر والنبؤات

فأسرع فى رياح الأرض.. علك من

زفيف الريح ترحمنى

يتيمٌ قلبىَ المصلوبُ فوق مقاصل الزمن

جئتُ إليك يوما بعد يوم كى تمد إلىّ

ثديا طافحا بالعشب واللبن

لتأخذنى إلى آبارك الخضراء

وتغسل فى خفايا الأرض مضغة قلبى السوداء
ومن ماء القداسة والرؤى والحب ترضعنى.

* * *

جننت إليك ياوجهاً من الظلماء
ومن قمر الجسور ورعشة الأعشاب فى النهر
مددتُ إليكَ صدرا مُثقلا بسنابل الفجر
لتأخذنى خلال ضفائر الشعر
وتسقينى عصير الطحلب القمرىِّ والشعر
وتُسمعنى غناء البحر والجميز والحنطة
فأسرع فى انتصاف الليل يا وجهاً
يطير خلال أغنية من المطر
ويضحك فى عروق الأرض من بئر إلى بئر
ويرقص فى دم الأشجار
فأحلم بالربيع الطيب المغروس فى عينيك يا وجهاً
يمر إلىَّ عبر قناطر العالم
بموسيقى النبوة والعناقيد الإلهية

فترعبك الربابات الجليدية

وتهرب.. آهةً فى صُلب مرثية.

* * *

وتحت العالم الأرضى .. فى السجن

تمر جدائل الأصوات عبر حوائط القرميد

غناءً طافح الترجيع بالحزن

وممدود القوافى تحت مقصلة من الطرب

فأسمع قهقات الجوع

وأسمع صرخة الأيتام من درب إلى درب

تغرغر فى دمى بخرافة الحطب

وفصل النار،

تستسقى الكواكب والرياح الخرس والأنهار

وتحلم فى دمى بجزائر القمر.

تمر جدائل الأصوات عبر حوائط القرميد

فتبتهل البكائيات للجسر العريض وموسم الغبطة

وتصرخ فى انتصاف الليل علك ـ أيها الوجه المقدسُ ـ

تُنْبِتُ الحنطة

وتُنضجُ فى ظلام البيض أسرابا من الأُطيار.

أُجِنُّ إليك؛ ياوجهاً تكحل بالرياح الخضر والأزهار

وعَصَّرَ فى الشفاه مشاعل الأَقمار

أجن إليك عاما بعد عام.. ربما تنشق

عنك حوائط الزنزانة الرطبة..

* * *

أتيتُ إليكَ من سفر إلى سفر

تركت جوادى المهزولَ فوق قناطر القرية

وجئت إليك مرتعشا خلال شوارع المدن

ركبت عواصف الطرقات واستلقيت فى السفن

وأعرف أن عينيك المغرغرتين بالرحمة

ستمتلئان بالقمر المجنَّح آخر الصيف

وتنسكبان فى ضعفى

وأعرف أن عينيك المغمغمتين باللغة الإلهية

ستخضران.. تخضران حتى يورق العالم

وأنك ـ أيها الوجه المقدس ـ من

رياح الليل تحرسنى
ومن موت الفجاءة فى ظلام الليل تحميتى..

* * *

أكاد أراك فى العتمة
وخلف نوافذ البلور
أكاد أراك فوق المقعد الخلفى فى كل
القطارات التى تأتى من المجهول أو تمضى
وأسمع صوتك الفضى
يصلصل فى عروق الأرض حتى يورق العالم..

١٩٦٥/٤/١٨

من ديوان «من دفتر الصمت»

مذكرات إبريق

تُرى .. من أى جرح ينزف القمرُ!
وهذا الليل والإنسان والسفر
أرادوا بعض ماء من سواقيه، فيتكىء
بمرفقه على جميزة الأُفق
ويخرج نهده المقطوع فى طبق
ويعصره، ويسكب ماءه بحدائق الأرض
فأملأ جوفى الظمآن

- أنا إبريق هذا العالم الأرضى - أملأ جوفى الظمآن
وعند مداخل الدنيا الترابية
أدسُ يدى بخاصرتى وأنتظر
فتأتى حية الأرض
لتشرب جرعة.. فتصبٍّ سم الأرض فى جوفى..

* * *

وهذا فارس فى الليل ينسلُ
على صدغيه بعض دم وفوق جبينه ظل
من الطعن الرهيب وصرخة السيف
من القتلى، من اللحم الذى لن ينبت الأحلام
وجاء الآن.. جاء الآن..
ليشرب جرعة من مائى الصافى
وأسقيه
فتلعق نابها الحية
وفى أعماق هذا العالم السفلى تنسرب..

-٢-

وتحت الليل جاء اثنان
وفى صدريهما طيران ينتفضان

وفى رئتيهما جرح عميق ينزف الخضرة

ـ : سنهرب هذه الليلة

ـ : سنهرب حينما نستأذن الموتا

ونمرق فوق قنطرة الرؤى للطينة الأولى

نشم عبيرها فنجوس فى الأحلام

تراقصنا الرياح ونعرف الصمتا

ـ : وسوف نذوق طعم الحنطة الأُولى

ـ : سنمرق مرة أخرى من البوابة الخضراء

نقبِّلُ هذه الطرق الترابية

وقد أنصتُّ للقبلات وهى تطير من غُلٍّ إلى غُلِّ

ـ أنا إبريق هذا العالم الأرضى ـ قد أنصتُّ لِلَّيلِ

يفجر نهره المعتم

فتشتعل الرؤى السوداء والخضراء

ـ : «تعالىْ.. ها هو الإبريق فى بوابة الأرض»

فأسقيه عصير الخوف والظلمة

فيمتلىء السكون المعتم العينين بالأجراس

ـ : «سنهرب ليلة أخرى

تعالىْ.. قد تمر الآن كوكبة من الحراس

وقد تغتالنا الأيدى التى تمتد فى الظلمة

وقد تهوى...بنا

- من فوق قنطرة الرؤى - الريحُ،

-٣-

وجاء اثنان من بوابة الليل:

عجوز لم تعد أنثى، وشيخ أطفأت أيامه الطرقات

رأيتهما كمزمارين مكسورين فى الريح

سمعتهما نداءً ضائعاً فى الأرض والظلمة

يقول لها: تسولنا طوال اليوم فاستعصتْ على

أفواهنا اللقمة

تقول له: ولم اعثر على ولد يطاوعنى

ويترك داره ويفر من أبويه، يتبعنى

ليصبح فى مغيب الأرض تعويذة

ليضرب صوته فى الصدر عرقاً يسكب اللبنا

يقول: أجل.. تسولنا وطالت فى عيون الخلق غربتنا

وهاجرنا بلا فىء ولا خضرة

أحس دمى ـ أنا إبريق هذا العالم الأرضى ـ يرتعش
أشم روائح الطاعون
أحس مجاعة فى الأرض تأكل طفلها الإنسان
فأسكب من دمى كأساً لشحاذين ينتفضان
تسيل خلال عظم الشيخ ماء معشباً..
ويظهره نسلا بلا أسماء
وتضرب فخذها بالطمث، تملأ صدرها لبناً
ـ :«سأرجع ، ربما ألقى صغيراً ضائعاً فى الليل يتبعنى
ـ :تعالىْ .. ربما نلقاه
ـ :لقد أغويتنى يوماً بما فى عودك الصخرىِّ من أابناء
فدعنى الآن يا تعويذة لا تنبت الرحمة.»
وعاد الشيخ يبكى وحده ويجوس فى الظلمة..

ـ٤ـ

صبى أخضر العينين فى الظلماء يحتضر
تشق جدار غرفته الرؤى، يتحدث الجميز والتوت
وتمرق عبر منورها العفاريت
يذيبون السواد الصلب فى القارورة الخضراء

ويفترشون فى جنبيه صوتاً غاله الصمتُ

فيغتسل الصبى بمائه الثلجى، يسمع آخر الأصداء

ويختطفونه فى الصمت.. يرتحلون تحت هوادج الصفصاف

يهيلون التراب عليه فى جبانة الصمت

وقد أحسستُ بالموت

- أنا إبريق هذا العالم الأرضى - قد أحسست بالموت

يريق عصيره الدموى فى الصفصاف.

أرى الدنيا يزلزل سقفها طاغوته الطواف

يدق بها خناجره الرمادية

ويسحب صوته فى الريح، يغرس رمحه فى روحها الصماء

يراقصها وينهش نهدها ويغوص فى الرحم الجليدية

ويشعل صدرها شمساً من التعتيم والدخان

وقد أحسست بالأشجار

- أنا إبريق هذا العالم الأرضى - قد أحسست بالأشجار

تمص من الثرى ملحاً رهيباً أخضر الرعب

* * *

أقمت العام بعد العام فوق الشاهد المهجور
أرمم ما تهدُّ الريح من جبانة الطفل
أوارى وجهه المتآكل المطروح تحت الشمس فى ظلى
ألاطف أوجه الغرباء
وأسقيهم إذا التفَّت على أعناقهم أنشوطة الصهد
أمد يدىَّ أحجب عنهم الشمس الجليدية
وأطعمهم ثمار الصيف كى يسترحموا الأمطار
أو يستمطروا الرحمة
أراقصهم إذا جاءوا مع الظلمة
وأذهلهم.. فيستسقون عصر النار..

* * *

أرى الغرباء ينزلقون فى الطرق
بأعينهم فجائع عالمٍ زلَقِ
يطاردهم غرابُ الأرض حتى يركعوا تعباً بمفترق
فينحدرون من رعب إلى رعب إلى رعب
وينفجرون فى دوامة الضحك الغريب الطعم والهرب
وينطفئون فوق أسرة الأفخاذ والعرق

ويقتتلون من شبق

ألاطفهم فيكتئبون

ويشتعلون تحت صواعق التعب

أمد يدىَّ أحجب عنهم الشمس الجليدية

فتأكل ساعدى الريح

يُدَحْرِجُني غرابُ الأرض فى جبانة الطفل

فأبدأ هجرتى فى الطين منكفئاً على ظلى..

- ٥ -

بقلب الأرض أسمع أمى الحبلى

تقول: صغيرنا قد كان مَهْرَ الزيجة الأولى

فكم ضمنته بين مراشف التفاح حواءُ

تقول: صغيرنا قد كان نصلاً فى يدىْ قابيل

وآنية يسيل بها الدم المغدور

تقول: صغيرنا قد كان باباً سال من أعتابه الطوفان

وكان القبر والغيطان والإنسان

تغرَّبَ ساعةً فأضاع فى الأحقاب سر الصمت..

* * *

أنا إبريق هذا العالم الأرضى .. ينهشنى غرابُ المقت
أنا أنشق عن أهلى
وأهرب فى هجير حط فى عقلى
أغامر فى فجاج اليأس منسلخاً من الظل
أفتت صورتى، وأهد كل ملامحى وأغوص فى
الإعصار أبحث عن براءة قلبى الأولى
وأسقى جيلى المتسول العريان
فينشب فى عقولهم الجنونُ أظافر الإعصار
أراقصهم فيبتهلون لليأس
وأغرس خنجراً من رمزى المعجون من ثلج ومن شمس
بطينتهم، فيقتتلون من طرب..

-٦-

سأبدأ رحلتى محمرة عيناى منطفئاً وظمآناً
أنا إبريق هذا العالم الأرضى قد أصغيت للريح
تغمغم فى صحائفها التى انطمست فجيعةُ صمتىَ
المشنوق فى أرض التباريح

أوارى عورتى وفضيحة الأبوين فوق مضاجع الطمث
آقوم الآن بين فضائحى وأسير عرياناً..

* * *

رأيت الأرض ما طابت بها أثمار
ولا غنت على تابوتها أطيار
أنا إبريق هذا العالم الأرضى قد أصغيت للريح
تغنى نفس غنوتها
تغنى نفس غنوتها
فما أسرار أنى قد وُهِبْتُ السمع؟!!

* * *

أرى ولداً غريب العين شاب الرأس منه، اندسَّ فى الظلمة
أتى.. خطواته شبحيةٌ،.. يتأمل الطرقات
يُخالس وجهيَ النظرات
يجىء إلىَّ.. يسرقنى
ويحضن وجهيَ المطموسَ بين يديه، يخطفنيِ
ويسرع بى من الظلمات للظلمات
فأسمع قلبه المذعور يبكينى

وفى أنفاسه الملوية الإيقاع يرثينى

أكابد ثلج رسغيه

وأنظر بين عينيه

رحيلاً لم يزل فى طينة المجهول يدعونى..

١٩٦٥

من ديوان «من دفتر الصمت»

عذراء الصمت .. والصمت

مروَّعتان عيناكِ

وغائمتان تهرب فيهما الأشباح

وأنتِ وحيدةُ النهدين فى الغرفة

تمر جدائل الأصداء بالشرفة

بصوت الأرض والإنسان.. ترتعدين من

خوف ومن ألفة

تمر أصابع الليل الشتائية

تغمغم فى رصيف الليل موسيقى جليدية

فيرتعد الحليب الحىُ فى نهديك.. تصرخ فى

خصائص الباب همهمة بدائية

وأنت وحيدة العينين فى الظلماء منسية

تغرب أهلك الفقراء فى اللَيل

تطاردهم قناديل الشوارع والعيون الخرس والحرسُ

خناجرهم بقلب الريح تنغرس

وينحدرون فى الظلماء

خناجرهم نُهير دم وأقمارُ

عباءتهم أساطير

وجوع أخضر العينين فى الأصلاب محفور

ربابتهم تغنى زهرة الأمطار

وينحدرون فى إيقاع أغنية

جلاجلها تفجر فى دمائهم الرؤى والرعب والأشعار..

* * *

تغرب أهلك الفقراء فى الليل

ومن تل إلى تل

تدور عيونهم فى مسرب الأشباح

(تعالوا فى خيامكم الدخانية
من الأطلال والآبار
بما فى العالم السفلى من عُمد سديمية
وأجراس تصلصل بالدم المخطوف من
أطفالنا الزغب
وأكفان تغرغر بالدم الرطب
سنغرس فى وجوهكم الرمادية
خناجرنا..)
ومن تل إلى تل
تغرب أهلك الفقراء فى الليل
وعاما بعد عام تذبل الكرمة
شهورا، ثم تخضر
ووهم – فى الريح – لم تطفئ لهيب ظمائهم خمر
بكائياتهم غرست قوافيها بقلب الليل
تستسقيه بعض سحائب الرحمة

ويا إنسان)

بقيا من خشاش الأرض أنت،

وشائه الخلقة

يطاردك العساكر والقناديل المسائية

فتضرب تائهاً من مهدك الثلجى للّحد

دماؤك ليس تخضرُّ

وأرضُك لم تفجر ماءها بئرٌ

وطول الدهر لم تثمر شجيرات الدم

المغدور عنقوداً من الغضب

ولم تضرب بكائياتُك الخرساء نار الشعر

فى الحطب

فمزق وجهك المجدور

فقد شنقتك من عام إلى عام..)

ومن عام إلى عام

يعود الموكب المقهور فى الصبح

على أكتافهم قتلاهم السمر

تغطيهم عباءات تطرزها عصافير الدم المسفوح

تحط على نواطير الشوارع والرصيف الصامت المهجور

عصافير الدم المسفوح

تحط على الحوارى الرطبة الجدران

عصافير الدم المسفوح

تحط على نوافذها المعتِّمة الزجاج وسقفها

المصبوغ بالقطران

عصافير الدم المسفوح

* * *

وفى عينيك حط الرعب والغيم

فتنتظرين.. تنتظرين صوتاً أو صدى يأتى

بما فى البحر من سفن

بما فى الموج من زرقة

بما فى القاع من عشب ومن أحجار

وتنتظرين.. تنتظرين صوتا أو صدى يأتى

بما فى الأرض من أشجار

بما فى الأفرع الخضراء من زهر ومن أثمار

وتنتظرين .. تنتظرين صوتا أو صدى يأتى

بما فى الريح من أمطار

وما فى الطين من علق ومن عفن

وما فى الصمت من نار تفجر ثديك المعمور باللبن..

* * *

مروعة الضفائر أنت فى الغرفة

وخلف الباب صوت صارخ بالجوع والرعب

(أنا المتسول العريان

تركت دمى لما فى الأرض من نُصب

يطاردنى العساكر والمصابيح الضبابية

فجئت مُفزّعا.. قد خاننى قلبى

خذى عنى الجراب الفارغ المقطوع

هبينى كسرة من خبزك الأخضر

هبينى كوية من مائك الدموى يعشبٍ

لونها فى أضلعى الجوفاء.)

فترتعدين من ركن إلى ركن

وصوت خطاه فى الظلماء يبتعد..

* * *

يدور الهمس من دار إلى دار
بأن فضيحة تلتفُّ بالعار
تلف حبالها حول الرقاب.. فيصمت الآباء
وتنطفئ العيون السود فى الأبناء
تجف قلوبهم شيئا فشيئا ثم تحترق
وتحترق الدماء، تحط شمس الملح والصمت
ومن دار إلى دار
تفوح فضائح النسل الذى يأتى بلا قلب..

* * *

لقد أحببتُ عينيكِ
وأحببت القناديل التى تهتز عبر شوارع الموت
ركعتُ العام بعد العام تحت مقاصل الصمت
وبعت دمى لأشرب قطرة من ماء نهديك
لتصعقنى البروق الخضر.. تشنقنى ضفائرك الإلهية
طرحت القلب تحت سنابك الليل

ومن وتر إلى وتر

تغمغم آهة الموال من وتر إلى وتر

تغرغر فى نوافذك الزجاجية

وقد أحببت – حتى – الرعب

تفجر صدرى المحروق بالغفران

لكل يد.. لأنى كنت أطفح بالرؤى والحب

لأنى كنت ممتلئا وجوعانا

ومستورا وعريانا

فجئت إليك من درب إلى درب

ولم أحمل معى قلبى

فقد أعطيته للحارس المنصوب فى الباب

* * *

خلال الأرض.. من باب إلى باب

وعبر نوافذ الطرقات والشرفات

يولول صوتها المخبول:

خذونى فى محفتكم إلى الشمس

لتربط فى ضفائر شعرى الليلى بعض

شرائط العرس

،خذوا قلبى إلى القمر الذى يهتز فى البركة

ليطبع فوق خدى قُبلة البركة

هبونى طفلة ضحاكة العينين أو طفلا

خذونى فى سرير الريح

لأرجع من عذاب بكارتى حبلى

خذوا عنى لهيب الطائر المحفور فى صدرى

لأنزف ما تحجره الرياح الخرس من لبنى

أذيقونى عبير لفائف الأطفال

دعوا نهدىّ ينسكبا خلال حدائق النسل

ويا أبناء

تعالوا من ظلام البطن يا أبناء

لترحمنى شفاهكم الإلهية

من اللبن الذى احتبسته فى صدرى

المصابيح الشتائية

تعالوا من ظلام البطن يا أبناء
خذونى فى محفتكم إلى الشمس
لأشرب جرعة من غيمة النعمة..»

يغيب عويلها يوما، ويأتى، ثم ينقطع
وتنقلها الدروب إلى الدروب تهيم فى الطرقات
مفزّعةً يولول صوتها المشبوح
تلاحقها كلاب الأرض عاويةً.. بلا رحمة..

١٩٦٥/٢/٧

من ديوان «من دفتر الصمت»

دم على الأيدى

«قصيدة في ثلاث لوحات»

اللوحة الأولى:

تفتّح قلبه يوما على الشمس

أدارت رأسه أنشوطةُ الهمس

(دجاجتنا لها ديكان

ومخزن قمحنا نهبته أيدينا

لنطعم سارق الأعراض

ثم نجوع بعد بشنس)

ويمرق عبر دهليز يغط بصمته الليلى

مرتعشا وسأمانا

يغمغم بارد الشفتين عريانا

يحدق فى زوايا الدار،

يسمع ما تكتّمه الحجار الخرسُ

،كيف يفر من جدراننا الشبح

نكاد نراه،

لكن أخطأته بظلمة الغرفات أيدينا،

وتفتح أمه بابا يصرُّ صريره الصدئىً

،هذا الصوت يشرب من دمى المسجون

ويشعل مقتى المدفون

لما فى الدار من مبهم

وما فى الأعين السوداء من تاريخها المظلم.،

تقول له: انتظرنا وجهك المصفرُّ من جوع

لتأكل فى وليمة عيدنا المبرور

وتنعس فى حرام الصوف حتى يعبر الديجور

بما فيه من الريح الشتائية.

تقبل وجهه الثلجى، تعطيه الطعام البارد المرق

وتحمل قبضة من أرزها المعجون فى الطبق
وخبزاً ناشفاً ما بين مهروس ومحترق
فيغرس فى سواد عيونها عينيه..
(فى أغوار عينيك
ملاحم ظلمة حمراء
ونبع طافح بالصمت والشك)
يقول لها: أكلت الصبح يا أماه
فقد أعطتنى الطرقات بعض نباتها الطيب.
(وفى عينيك لم أشبع من الأسفار
ولم أبحر سوى للريح
وفارغتان عيناك
وعامرتان بالأسرار
ومظلمتان يهرب فيهما الشبح)
تقول له: تدثر بالحرام الصوف
فهذا الليل مرتعد من البرد
يقول لها: تفح النار فى كبدى.
(هبينى ثديك المسموم

لأرضع سمك الأخضر

فأرجع مرة أخرى صغيرا مغمض العينين

وطفلا دون ذاكرة، بلا ظل

خذينى مرة أخرى إلى جنبيك

دماء ليس تنعقد

وماء طائرا فى الصدر والثديين.)

تقبل وجهه الثلجى.. يرتعد

يفر اللون من عينيه، يهوى فجأة بالخنجر المسنون

على الأم التى شهقت بكل كيانها للموت

يشق الصدر يقطع قلبها ويدسه بثيابه الحمراء

فيرتعش الصدى الأحمر

وتتكفىء الظلال الحمر فى عينيه،

يهرب قبل أن ينهد سقف البيت

يفر خلال أرض أقفرت إلا من الأعين

يفر خلال أحداق بلا أجفان..

اللوحة الثانية

جوقة من الرجال

خلال الأرض ينسكب الدم المسفوح
ويصرخ قطرة قطرة
لكيِ تقتص أيدينا
لما أرداه نصل القاتل السفاح
من الأحلام والنشوة
وغرغرة التشهى الحى فى الأعماق.

جوقة من النساء:

خذوه قبل أن تتراكض الأخبار
بما فضحته عيناه
خذوه قبل أن تتقلب الأشباح
لتهدم فى ظلام الليل مخدعنا
خذوه قبل أن تتنفس الأخطار
فيحلم بالنصال الخرس صبيتنا
وتخلقهم روائحنا
ويغتسلوا بنبع دمائنا الفوار.

جوقة الرجال:

وياللعار

إذا ما أفلتته مشانق الأشجار

ولم تصرعه تحت نصالها الأمطار

جوقة النساء:

خذوه قبل أن يمضى إلى جميزة المغرب

وجيئونا به فى القيد كى نسقيه

ونطعمه قبيل الموت أو نبكيه

جوقة الرجال:

ستقتله قبيلتنا بكل رجالها الأبرار

وتملأ من دماه النهر والآبار

ستشنقه بكل فروعها الخضراء

لتنصب أمهات رجالها مزمومة الشفتين

جوقة النساء:

دعونا نمسح الزبد الذى يطفو على العينين

وننظر فيهما الأحزان

جوقة الرجال:

ستطرحه قبيلتنا لتأكل وجهه الذؤبان

وتخطف قلبه الغربان

ويحرم منه دود الأرض.

فكيف نرى مشاعركن.. يأخذكن

بالأرجاس ضعف قاتل الرحمة!!

جوقة النساء:

سنصرخ كى تردوا جسمه المطروح للأرض

سنترك دورنا وسنهجر السرر الشتائية

إذا لم تدفنوا عينيه فى الظلمة

إذا لم تطرحوه على عباءة أمه السوداء كى يرتاح

جوقة الرجال:

مضار بنا محرمة على أضلاعه السوداء

جوقة النساء:

قساة يا رجال الأرض

لأنكمو بلا أرحام

لأن صدوركم لم تنتفض بمسارب اللبن

قتيلته ستحصبكم بما فى الأرض من حصباء

وتندبه بما قد كان بينهما من اللبن

اللوحة الثالثة:

يفر خلال أحداق بلا أجفان

يراوغ حائطا أخرس

ويرعبه اهتزاز شجيرة كتعاء

(ولو أنى تركت علامة الموت

لما اختطفتنى الأشباح

ولو أنى غسلت يدى من شاراتها الحمراء

لما اختنقت حمامة قلبى الأبرص

لحطت فى دمى بالنوم والصمت.)

تحط على يديه ذبابة زرقاء

وفى جنبيه حطت بومة خرساء

تنقّر قلبه المصلوب

تضيق الأرض، تنشعب الطريق مساريا مسدودة الأبواب
(لماذا صلّبتك الريح يا جميزة المغرب؟!
تطن بجوفك الأصوات
جذورك أرجل هبت تلاحقنى
سأهرب من هنا.. أو
من هنا.. أو
من نهاية أول المسرب
سأمرق من هنا .. يا شمسى السوداء
خذينى واطرحى فوقى عباءة قلبك الطيب)
تضيق الأرض، تزحف نحوه شجرا وجدرانا
على عتباتها عينان سوداوان
يحدق فيهما
(لو أننى جعت
لمت هنا بلا لقمة.)
ويسمع شهقة غوارة مغروسة فى أضلع الريح
تدور، بنهدها نصل وفى العينين رعب صارخ الروح
يرى عينين غاربتين فى جميزة المغرب

يرى وجها بلاشفتين

وفوق يديه خيط دم بلا لون

وقلب الأم تحت ردائه مازال يرتعد

(ولو أنى عن الجسر الرهيب الطين أبتعد!!)

يولى وجهه للريح ، ينكفىء

يعض الأرض يصبغ طينها بالرغوة الحمراء

وقلب الأم يجهش نادبا ويئن بالرحمة

يغرغر وهو بالغفران يرتعش

يغمغم وهو بالغفران يرتعش

١٩٦٥/١/١٧

من ديوان «...حدث الطمي»

اختراق مملكة محرمة

خضاب العرس فوق يديه قبرةُ مسائية
وقنديل على بوابة الأرض الرمادية
وفى قدميه وشم حمامة برية تهتز فى أفق من الحناء
وفى جنبيه ساقية المواويل
تصب غناءها الطينى مرتعشا على أهداب قنديل
فتسقيه عصير الطمى والأضواء
وتسقيه عصير العشب والجميز،
تطلق روحه فى الليل مئذنة هوائية

تطير بقلبه زغرودة كانت بجوف الأرض منسية

ويضرب فى ترائبه الدم المحرور

يغمغم فى ظلام عروقه الأبناء..

* * *

تسلق شرفة الغيطان صمت، أنجم ، قمر

وتحت مهاجع الجميز والصفصاف ماء مقمر

بردائه الليلى ينحدر

تعوم على حوافيه فراشات سماوية

وتحت الماء.. تحت الماء مملكة تضىء قصورها

وتضىء أبهاء خرافية

ومن أبراجها ينشق وجه الماء

فتخرج فى انتصاف الليل جنية

تشم العشب فوق الشط، تمسح شعرها

بالضوء والكافور

وتحت قميصها نهدان من ذهب ومن مرجان

تعرى صدرها للريح كى يتنفس النهدان

فيرتعشان حين يجوس بينهما يحط عليهما القمر

وترقد فى سرير الجسر عارية.. وتنتظر..

* * *

وينطلق الفتى الريفى قبل زفافه عبر البنايات الترابية

يجوس خلال أرض القمح والأقمار والظلمة

يغافل أعين الليل

تساوره الهموم الخضر والأعراس والأحزان واللقمة

ويسرع فى طريق النهر..

يذهله سرير الجسر بالتعتيم والأضواء

«تُرى.. من أى أرض هذه العذراء!

مهاجرة رمت أثوابها فى النهر؟ مسحورة؟

دخلت مدينة سفلية فى الصمت مطمورة؟»

- لماذا جئت يا إنسى حتى صرت فى أعتاب مملكتى؟!

لقد عكرت نزهتى المسائية

رأيت محرما، وفضحت يا ابن الطين أسرارى

- أضلتنى الرؤى حتى نسيت مسالك الأرض

وساقتنى التهاويل السماوية

إلى بستانك الممدود..

* * *

تدور الأرض تحت حبائل القمر

وفى النهدين فاحت زهرة الخشخاش

وفى العينين أشرعة خلال الصمت والمجهول تبتعد

يمرغ وجهه ويشم بين جدائل الشعر

حدائقها الإلهية

يلامس كأسها فتدب فيه شرارة خضراء

يقبلها ويرتعد

يلوذ بها فتعصره ، يغوص بصدره نهدان مسنونان

وينغرسان.. ينغرسان

تسير به إلى أبراجها وقصورها وتغيب تحت الماء

وتحت الماء يشهق دهشةً

ويراقص الجنية المبهورة العينين..

١٩٦٤

من ديوان «يتحدث الطمى»

شجرة الأسلاف

دفناً فى جذور التوت موتانا
وعدنا..
نملأ الأفران دخانا
لينتظر الصغار فطائر العيد
وينتظر الكبار مواسم الأمطار،
يخرج صبية القرية
ويلتفون حول جنينة التوت
«تسلق واضرب الفرعين بالأقدام

فهذا توتنا الأبيض
يمد جذوره ويمص ما بصدور موتانا
ويشرب ما بأثداء النساء السمر من لبن
وهذا توتنا الأحمر
يمص دماء قتلانا
وهذا توتنا الأخضر
يمد جذوره بسواعد الأطفال.
ويا شمس الفروع الخضر غطينا
وضمينا سوارا من حميم الطين فى رسغيك،
واسقينا وصبينا عصيرا فى جذور التوت..

١٩٦٤

من ديوان «يتحدث الطمى

أحزانُ الشبح الأول

لو أن الشمسَ القاسيةَ السوداء

قلعتْكم من غيطان طفولتكم ورمتْكم فى

عربات الغربة والصحراء

فخلعتم ثوبَ الدفء الأول

ولبستم رقَعَ الألوان الثلجيةِ والديجور

لعرفتم كيف أموت

خطواتيِ كفنى، غُسْليِ مطرُ المنفى،

خبزى فى كفّىَّ هو التابوت..

* * *

الجسرُ الواصل بين شتاء القلب وصيف الجوع
عرّاني - إذ أُدْخلنيِ فيِ عينيكِ الواسعتين -
فرأيتُ العالمَ يرقص بين الزئبق والتوتياء
ورأيتُ شجيرات الحناء
تنسكب خمائرُها البنيَّة فى أطراف
ضفائركِ المحلولةِ والكفين
ورأيتُ الله
يطردنى من بوابتكِ الخضراء
موصوماً، فى قلبى ضَبَحُ الجوع،
وفى شفتىً الآه
تتجمدُ فى صمت الأشياء
تَتَفَتحُ نوافذَ لاتعبرُها الشمس ولاتسكنُها الريح
تستلْقى فى أسفلْت المنفى،
تركض فى صحراء الزحمة واللغة الجدباء.

* * *

القمرُ المعتم تحت سماء اليأس
صلّبنى فيِ ألوان الأعين،
طوّحَ بى،

فدخلتُ شقوق الأرض

وانسكبتْ فى رئتىَّ مياه الخلق

وأتيتُ إليكِ غريبَ الوجه ومحتدمَ الكلمات.

أرأيتِ اليوم الأول حين تفجَّر قلبى بالآيات

أرأيت العام الأول حين انطفأتْ فيه الشمس

أرأيت السنة الكبرى حين انْحلَّتْ رابطةُ الأشياء

واشتعل سديمُ البدءِ، امتلأتْ بطنُ الطينة بالأبناء

فعرفتُ ملامحَ وجهى المنتظرِ المحموم

يترقبُ وجهكِ - يانقَّالة روحى فىِ طرقات البغض -

يسترْجعُ طعمكِ - يا ثمرَ الزقْوم - !!

* * *

هذا وجهى .. امتسختْ طيبته الأحزان

وانغرست فيه تجاعيدُ النسيان

هذا وجهى..

كنت صغيراً مزْدوَجَ الإسمِ.. فصرتُ بلا أسماء

هذا وجهىِ..

* * *

النعشُ الأول يطلع لي فيِ طرق الحيْرة والتغريبة

النعش الأول يطلع لى

فأراكِ الأن.. صدىً منطفئاً يحمل ما أفقدنى

العالمُ من آيات الطّيبةَ

وأشمَّ ضفائركِ المخضوبة

وأحسُّ روائحَ بيتى الأول والجُدَرِ المطلولة بالأنداء

وأرانى أرقص فى عينيك خلال الزئبق والتوتياء

أتحسّس صوتيِ الأول فى شفتيك الصامتتين

وأرانى شبحاً جاء من النسيان

والنعش الأول يطلع ليِ..

* * *

كنتُ صبياً..

وعرفتُ شعائر دفن الموتى دون بكاء

كنت صبياً أتسلّق فرْع الشمس..

فعدت وفيِ جنبيّ الداء

وأتيتُ إلى أبوابكِ ذات مساء

فانهدم العالمُ واختلطتْ موسيقى الكون

ودفنتُ الميتَ في ناموس الفوضى،
انسربتْ روحي في شهقات اليأس
انطفأت في شفتيّ النار..
الجسدُ ـ الجثةُ قد طرحتْه طقوسُ الموت
فمررتُ خلال تناسُخِ وجهي في تاريخ
المحو وريح الخلق
وابيضّتْ عيني حين انفجرتْ شمسُ العالم
تحت سماء الخوف
وصعدت السلَّمَ في ألوان الطيف
فتخلّقَ وجهي في شرنقة الظلمة والأضواء
وأتيتِ إليَّ وفي عينيكِ الشبحُ الأولُ والأحلام
فارتعشتْ غيمةُ حزني،
حطتْ في شفتيَّ الرعدةُ والإنكار
فابتعدي.. كرْمة روحي تنتظر الأمطار
والشبح الأول يحمل في جنبيه سيوف النار..

١٩٦٧/٤/٦

من ديوان «رسم على قشرة الليل»

انتظار شجرة

أراها.. على كل مُفْتَرَق خلعتْ ثوبَها

وقفتْ تحت نافورة الليل والشمسِ

واغتسلتْ في مياه الفصول

أراها تكابُد - في غبطة الإخضرار -

تَفَتُّحَها تحت نار التفرُّعِ أو عُرْيها في ارتحال الغبار

وترحل في هالة الشمس طول النهارِ

فتطلق من جوفها رغوةَ الضحكات العميقة

طيوراً تهاجر في سلّم اللون،

تعطي المسافة

تجسُّدَها المستديرْ

وتمنحُ خطَّ الفراغ انحناءً،

وتحضن فيِ ظلّها كائنات الهجير

فتمزجُ تحت الرياح - السقيفة

مياهَ التخلُّقِ والرملَ والكلماتِ - الرموز..

* * *

هنا.. الصمتُ فى رحم الكلمات

تمدَّدَ فى النطفة الأبدية

تخلَّقَ وجهاً وحنجرةً ذهبية

ومدَّ يديه إلى الزمن المتسكّع فى الطرق الجانبية

هنا الصمت يأكل من ثمر الأحرُفِ اللّوْلبيّة

ويهرب عبر التخوم القديمة

ويغسل بالريح أرض الوليمة

هنا الصمتُ يبنى بمملكة الأبجدية

ويرفَعُ طمىَ الشعائر سنبلةً فى الحصاد الخبىء..

* * *

إذا زحف الليلُ.. أقفلْتُ بابَ الحواسّ
لأمضغَ ما قد مضغت طوال النهار
من الضحكات المريرةِ والإكتئاب الفَرِح
وأطلَقْتُ فى وطن الليل مُهْرَ النعاسْ
ليصعدَ بى سلَّمَ الرمز أو يتقدم فى الغابة المعتمة
فيمنحنى لغة الشهوات القديمة
ويمنحنى دهشة الأُعين المفعمة
بشمس البداية والقمر الأنثوىِّ العظيم..

* * *

أراها تسطر تاريخها الحىَّ فىِ كتب الطحلب
الزغبىِّ افتتاحاً
وفى كتب العشب نسغَ اخضرارْ
وفىِ كتب الورق المتجدِّد يغلى التداخل والإختمار
وفىِ الزهر تستَقْطِرُ الشمسَ،
تعجن فى رئتيهاْ لقاحَ العناصرِ،
تملأُ سلَّتَها بالثمار
وتقفز عبر تواريخها الشجرية

مواتاً طلوعْ

خريفاً ربيعْ

تسطرً فى الثلج والنار آيتَها العبقرية

وتسرع فى عربات التوالد،

تصعد منحدرات الفصول

لتصبح أولَ ما أطلعتْه الخلائطُ،

آخرَ ما أطلعتْه العناصر فى أرضنا الدموية..

* * *

تُغَرْغِرُ فى دمعة الحبً

تغسل إيقاعها فى دم القلب

ترقص عبر المنافى البعيدة

ويخنقُها معجمُ الرعبِ

تُولَدُ فى معجم تتَأكَّلُه النارُ

تفتح أبوابها فى الرياح الجديدة

وتأخذُ من كرْمة الفرح الداخلىً العظيم

حلاوتها، والمرارة من عندليب البكاء الكظيم

وتغضب منّا بنا

وتفر بأقمار أحلامنا
وتهزْ مراقدَنا المعتمة
لتصبح أولَ ما حملتْه الرياحُ
وآخرَ ما قاله البرق والرعد
فى شفة البشر الوالهة.

١٩٦٧/١٢/١٥!

من ديوان «رسوم على قشرة الليل»

الحصان والرأس

«من الخرافة الشعبية»

١

وقفت على شاطئ البحر أنتظر السفن العائدة

فأدهشني أن رمل الشواطئ كان يسافر

وأن كتاب الغرق

يسطّره في سوافي الرمال غناءٌ محاصر.

رأيتُ الخيول الغريبة

تمدُّ من البحر أعناقَها الطافرة .

وتصعد من زرقة الماء والملح

ينقش توقيعها السنبكيُّ صكوكَ الرؤى البائدة

وتترك فى أذن الأرض قُرْطَ الصهيل

وفى فمحها منجلَ الحمحمة

فتنزف شمس الأصيل

تَخثرَها الدمويَّ على الطرق المعتمة

ويقتتل الطيرُ فى الريح..

لما أدرتْ العيون

إلى النهر.. كانت بأعماقه المظلمة

تفور البطون التى أُنْتِنَتْ

والرؤوسُ التى أكلتْها الحشائشُ

والأذرع الميتة..

-٢-

على الأرض كانت بقايا خطىً وبقايا أغانٍ

من الدمع والضحكات البريئة

تمرّ عليها الرياحُ وتكنسها..

(كانت الشمس موقدةً فى الفضاء

تصبُّ على الميتين أكاليل شوك مضيئة

وتهبط حتى تلامس لحمَ الوجوه

وتقطف من زهرات الصراخِ الخبيئة

لقاحَ الردى والولادة

وأزمنة الشعر..

كانت طيورُ الظهيرة

شظايا هواء تَفَحَّمَ..

كانت تُدَوِّمُ ثم تحطُّ بأرض الوليمة

وتصعد.. بين مناسرها من رميم الصدى

وحشرجة الشمس - وهى تمر خلال

العيون تشقّ غشاوتها ثم تسكب

دائرة الرمل فى طعنة واحدة -

وتحمل بين مناسرها من خلايا الجسد

صراخا تحجر.)

وكانت طيور الظمأ

تجيء وتغدو هواء يهز الستائر ، خشخشةً

في فروع الشجر

وحفنة ماءٍ على أصص الشرفات المضيئة..

د٣د

رأيت الظهيرة

خيولاً من الشهوة الغامضة

تحمحم تحت قشور الكلام وتركض عبر مسافاته الصامتة

فتهتز ـ من ضربات التشهي ـ خبايا المواريث

في الغابة الميتة

تدق الطبول البعيدة

ويغدو التحام الظلال على الأرض رؤيا قتال مؤجَّل

وبين اصطفاق الأكف الصديقة

يصلصل ما تركتْه القبائلُ من صرخات الحصار..

وفي الليل.. كانت خيولُ التشهي تحمحم في ظلمات

المخادع، ترفع أعناقها في رؤى الحدَقِ الباهتة

وتكتم أصواتها البربرية في ضربات الملاعق

أو في طقوس الرضاعة

تصير هواءً وخبزاً ، تسدُّ الفضاء،

(وتلبس قشر الإشاعة)

دكد

(رمتْ نخلةٌ تَمْرَها فى الرياح

فمرٌ إلينا ـ خلال السياج ـ

شظايا زجاج

ولحمٍ تفتت فى السعف المشتعل،

رصاصاً من البقع الدموية..

كنا أمام المرايا

نسدّ ثقوب الردى فى القناع..)

وكانت خيول الظلام

تحمحم بين الزوايا

وتصهل فى كل قفل معلق

وفى كل عروة رعب تلف الرتاج

وتصهل.. تصهل.. تصبح أصواتُها نغماتِ التوافق

وإيقاع صوت القرار وصوت الجواب..

* * *

نهز عن الجسد المتهالك قشر النهار ونرمي

حصاد الخطى.. تتفجر فوق الجدار مواسمُ

أحداقنا المحيطة

وتلتمّ كل المساحات، تجرى خطوط الدوائر

تكتّلُ، يصبح فى كل دار حصانٌ..

(وفى الخرج كنزُ الممالك والسفن الغارقة

ورأسٌ قتيل- نجا قاتلوه وخلّوه بين القفار

ينزُّ دماً ونجيعاً ـ

: فمن يفتديه بحفنة دمع وكسرة خبز

وشربة ماء

ويخرج فى الليل فوق الحصان بغير شكيمة

ليطعمه يرعما من غصون الحرائق،

يسقيه شكوى الطلول القديمة

ويدفن فى غرفة النوم رأس القتيل

فسوف يصير الدم المتخثر زهريةً،

والممالك والجزر الغارقة

عطايا وخاتم عرش الجسد

وصكّ الوصايا ومفتاح أرض المواريث

والمدن الطالعة

وجوداً بقلب الغياب

وطمئاً بنبع الحصى والتراب..)

* * *

شرتْ حُدْبَةُ الأفق وازّحزَحتْ كِسفُ الزرقة الهاوية

وطأطأت الأروسُ الخاوية

(فقد تفتح الأرض قفل صناديقها المغلقة

وتنشر تحت الخطى - من نصوص الوصايا - عطايا الدفائن

وقد تفصح الأرض عن قطرات الدم الباقية)

ومن بين كل يدين تصافحتا كان صوت المفاتيح يسقط،

والجزر الغارقة

تغرغر في القاع، تفتح ذاكرة الليل والخيل والأروس الضائعة

وخيبة يأس الفجيعة

وحس الرغيف المهادن..

ددد

على كل باب علامة كف ملطخةٌ بدماء طرية

يجىء الصباح فتمسحها الشمس،
يأتى المساء
فينسجها الخوف فى الغرف الداخلية
ويطبعها ـ وهو يسرع تحت الظلام ـ

(رصيف المدينة
سلال وأغلفة حجرية
تَكَوَّمُ فيها الرؤوسُ وتنسج فى
شعرها ودماها العناكب
بيوتا قديمة
وتحت الحوائط، فى الحافلات المليئة،
تحت حصير الجوامع،
فى منبت الجذر من كل شئ.. تنزّ الرؤوس
وينسج من شعرها الصمت والرعبُ
أشباحَ ليل الخرائب
ويملأ جوَّ المكان ذبابُ الجريمة)
* * *
يضيق حصار المسافة حول العيون.

(بعينيك يا طفلتى زهرةُ الشمس، مملكتى،
وخطاى وعرشَى الجموح
بعينيك أرضى القديمة
تمرين - مازلت - بين الرضاع وبين الفطام
أجيؤك منكسر الظهر.. أعطيك سر الجروح
وأعطيك سر العيون الثقيلة
وأعطيك سر الأزاميل وهىِ تشق فراغ السطوح
وتكتب أسماءنا واحدا واحداً
وتخط بقلب التعاريج طقس البراءة والاتهام
وترسم تحت شقوق التداخل
رماحَ القبائل.
وعيناك يا طفلتى زهرَةُ الشمس، مملكتى،
وخطاى، وعرشُ الجموح
خطاى وعرشُ الجموح..)
يضيق حصار المسافة حول العيون
ويشتبك الظل فوق الشقوق الحبالى..

١٩٧٠/٩/٢٧

من ديوان «كتاب ازرض والدم»

مفتتحٌ صغير

كنت أظن أن شيئا قد حدث، أو يجب أن يحدث، بعد أن جاء الشبحُ الذى لم يره أحد - هكذا قال لنا من نجا - وترك على وجه العناصر المتخالطة بقعةً هائلةً من الدم أخذت تتسع شيئا فشيئا، حتى أنها لم تترك داراً إلا وأصابتْ بابها بعلامة، ولم تترك يداً إلا وعلى أصابعها شارة اتهام.

كنت أظن أن شيئا يحدث؛ ولكن الوقوف على الحافّة لايكون بديلا عن الوقوع فى الهاوية.. وهاأنت.. أيتها الساعات الدامية.. مازلت مقتطعةً من سياق الزمن.. لم تدخلى فى نسيج الأيام.

كنت أظن أن شيئا كلياً يولد من المزق التى تهرأت، وأن الساعات الدامية ستطلق من الأفق الشرقى قمرَ اليتم والفجيعة مؤذنا ببدء سخونة الأرحام وطقوس الولادة الكونية.

ولكنك أيها الشبح العظيمُ أيها القاتل الرحيمُ، أيها المطهر الرجيم، وقفت عند الحدود المغلقة ، ولم تدخل البيوت بعد،

تراجعت سريعاً بعد أن أشرْت بأصبع الاتهام فى الجهات الأربع، وقام سورٍ الصمت بينك وبين الزحام.

أعرف أن شيئا يحدث.. حتى تظل الساعات الدامية بعيدةً عن سياق الزمن، وحتى يُعطى اسمٌ آخر لبقعة الدم.

ليست المسألة أن نرقع الثوب، المسألة أن نستبدل الجسد.. شهدنا ونشهد..

١٩٦٩/١١/٢٢

من ديوان «كتاب الزرض والدم»

عن الحسن بن الهيثم

١ ـ عذاب الأحجار:

كل صخرة
دَوَّرَتْ قشرتَها نارُ الكهوف
عجنتْ طينتَها الشمسُ ولفَّتْها خيوطُ المطرة
دحرجتْها عجلاتُ الزمن المنكسرة
فهى أرْحاءٌ وأرحامُ رغيف
وهى وجه ناعمٌ فى مدخل البيت الأليف
وهى للأرض إناءٌ أثرىٌّ ولقلبى مَجْمَرَة

وهى لى موْطئ ميلادى وسقفُ المقبرة

وأنا .. تنظر عينى المبصرة

صمتَها يقْطر بالدمع وبالرمل خلال الطرقاتّ المقفرة

أسمع الصرخة فى قشرتها تحت الزحام

علّها تصبح نسْغاً فى عروق الشجرة

أسمع الشارع يبكى فى انتظار الطيبين السحرة

وأنا أهرب من صوت لصوت من بكاء لبكاء

ودّ قلبى لو تحوّلتُ لماء

وعروقى اشتعلتْ .. فى كل قطرة

شهوة المعجزة المنتظرة

وانخطافٌ بانفلاق الضوء لونا بعد لون..

٢ ـ الصوت المحاصر:

حينما قابلنى النهرُ سقانى

بانفتاحاتِ ذراعيه اغتراباً وأمومة

وكسانى إذْ رآنى عارياً ـ حتى من اللحم ـ وأعطانى

عطايا الزهَرات الدموية

وحبانى بالهبات المحرقة

قال لى:

أركضُ.. لاعين ترانى

تتلوّى صرختى تحت خطاىَ المغَرَقَه

آه .. من يُسْمِعنى صوتى،

ومن يسكب فى حلقى دموعى!!

دمعتى تُفلت من عينى جزيرة

أوزروعاً وجسوراً وقناطر.

قال لى النهرُ:

أنا أفتح صدرى للمدينة

وأناديها إلى ليلة رقص وتخاصر

وأغنيها.. ولكن المدينة

لم تعد تسمع صوتى أو ترانى..

قلت للنهر:

اتخذْنى لك فرشاً ووسادة

واتخذنى ـ حينما تجرحك الشمس ـ ضمادة

ثم علَّمنيِ طقوس السر، علمنى تراتيل العبادة

قلت للنهر، ولكن المدينة

حاصرت صوتى حوارا وصدى..

٣ ـ حلم:

أحلم اليلة أنى جسدٌ يطفو على النهر غريقا

أحلم الليلة أنى أتحجَّرْ

أننى أدخل فى القاع وأمتدُّ طريقا

أوقفُ النهرَ إلى سبع سنين

علنيِ أسمع فى قلب المدينة

صرخات الميتين

علَّها تصهل فى أغنية الشعب الحزينة

فرسُ القحط إلى سبع سنين

علنيِ أنظر فى رأس المدينة

شبح النهر ظلالاً ودموعاً فى العيون

علَّنا نعرف ميراثك يا نهرُ إلى سبع سنين..

٤ ـ مناجيات إلى النهر:

ـ ١ ـ

أيها النهر انتظرنى

واتخذ جمجمتى عشاً، وخذ من جسدى الحى دفاتر.

خذ يدى واكتب بها فى الرمل شكواك القديمة.

خذ لسانى بومة تنعب فى ليل الهزيمة

خذ دمى حبراً وأعراقى دواة وانتشلنى

من سهوب اليأس واطرحنى على رجليك رغوة..

ـ٢ ـ

«كلُ إحساس أليم»

وانفتاحُ جارح فى عصب القلب أمام الغزوات

قطرة واحدة منك دخولٌ فى الجحيم

طعمك الذائبُ نار فى لسانى

صوتك الضائع رمح حجرى فى كيانى

وارتعاشاتُك تفجير رهيب فى الخلايا

وانعكاساتك فى العين شموس دموية

والردى يرقص فى طميك.. يا نهرى الكظيم

- ٣ -

وجهك المكتئب الضاحكُ يجرى فى الخلاء
لاعباً لعبته الكبرى: ظهور واختفاء
لاعناً صمت الخيانة
باكياً ما فى عباءات الكهانة
من رضى الطينة أو من صلف المقت ورعب الخيلاء
رافضا ما يدعيه الشعراء
باعتصار الدمعة المستكرهة.
بعد ما جف الدم الضائع فى ليل الجريمة..

- ٤ -

أيها النهر.. تعرفت عليك
وتحسستُك.. أحزانُك فى الرأس ضفائر
وانتظاراتك شوكٌ طالعٌ فى قدميك
وتعرفت على وجهى الذى يغرق منحوتاً ومهدوم
الهيولى فى يديك
وتعرفت على أغنية الشهوة والخلق البدائى
وأحلام السنين المقبلة
غمغمات لم تزل صامتة فى شفتيك..

- ٥ -

أيها النهر .. تكلم عن طقوس الفيضان
بح بأسرارك لى حتى أرى قبل الأوان
وجهك الغاضب ينشق عموديا على
أرض الجراحات القديمة
لأرى جسمك منصوباً وعرياناً كرمح
مرحا كالنار إذ تأكل أخشاب السفينة
ورقيقاً لينا كالسيف، مكتوم الخطى
مثل الفجاءات الدفينة
وتكلم عن طقوس الطفو إذ تخلع جذر الكائنات
لأرى قبل الأوان
ماءك الواقف يمشى ثم يمشى...

- ٥ -

تصادم أقدار:

الحاكم بأمر الله:

ها أنا كل مساء
أتمشى فى سرير القمر الأسود،

أجتاز المدينة

كل باب فيه صوتٌ ضارع من «برجوان»

يتشكى موته النذل الجبان

وأنا أضحك في ليل المقطم

والصدى يرتد خفاشاً على وجهي الحزين.

حينما أرجع للقصر على ظهر الأُتان

أجد الأرض دماءَ تتوجع

أجد الصمت مليئا بالعيون

فأنادي صوتك الطيب يا داعي الدعاة

كي أرى موطيء أقدامي إلى النوم..

وفي النوم أراه

قمراً يحمل طفلاً ثم يرميه بفسقية ماء ودماء..

داعي الدعاة:

سيدي.. حيث تمشت قدماك

صارت الأرض سماءً، والنجوم

وقعت بعض حصى، والفلك الدائر جُبة

أنت فى طينة هذا العالم الفاسد حبّةً

حينما روعك الشر على الأرض أتيت

لابساً خرقة إنسان حزين

آخذاً حاشية السبع الطباق

جاعلاً منها سراجاً أو عباءة

سيدى.. تحمل فى صدرك آلاف المصابيح المضاءة.

فانتظر حتى ترى الشعب يصلى

وانتظر حتى ترى كل الرجال

عفّروا الأوجه فى موطىء رجليك، أقاموا

لك ميزان القلوب

انتظر حتى ترى العالم من خشيته منك يذوب..

الحاكم:

هذه الأرض اللعينة

بعد أن علقتُ فى أبوابها القفل وأحكمتُ الرتاج

وانتظرتُ الزمن الصارخ أن يصبح صمتاً وسكينة

علنى أسمع صوتى المتفرد

علنى أنسى وجوه البشرِ الفانين حولى

وأرى وجهى الحزين

فى مرايا الرطب واليابس وجهاً واحداً لا يتغير

غير أن الأرض حبلى بالشقوق

كل شق قبضةٌ غاضبةٌ أو حنجرة

وأرى.. حتى جذور الشجرة

أوجهاً تضحك منى.

الداعى:

سيدى.. أنت إلهٌ مغترب

بين شعب كل من فيه قمىء ونباتٌ متطفل

وأنا أنفخُ من وحيك فيهم

آيةً من بعد آية

فأراهم يسجدون

بين أسنانهم الخوف لجامٌ حجرى ومقاود.

ثم يمضون فرادى، يلتقون

فإذا هم يضحكون

ويحيلون الدم النازف والموتى حكاية

والمآسى نكتةً ضاحكةً والرعب خيلاً من

خيول الثرثرة

وأنا أنظر زيف الشعراء

كلما ضجوا تدلوا فى طريق المجزرة

فانتظر حتى تراهم يسكتون

ونكلم كلمة مقتدرة

فإذا هم حول أبوابك يستعطونك اللقمةَ،

يبنون من الشعر توابيتاً ومن

زيف القوافى مقبرة

وانتظر حتى ترى الشعب المخادع

كلما أغرق فى الضحك تدلى رأسه الفارغ بين الكتفين

وترى الأرض اللعينة

فرغت من ساكنيها.

«يسمعان النهر يبكى من بعيد»

الحاكم:

ما انتظارى وأنا أسمع هذا النهر يبكى ويصيح

صوته الغاضب مسمومٌ ومسنون فصيح

بعد أن أوقفته بين الصحارى

فاقد الرأس ومقطوع اللسان

فإذا النهر الجبان

يحفر الطينة - من تحت ِلتحتٍ - حنجرة.

يجعل الأشجار صوتاً طالعاً

والسواقى من صدى الصوت تنوح

والرياح الخرس للصوت المغنى قنطرة!!

ما انتظارى وأنا أسمع فى ليل الصحارى.

رملها الأسود يهتز مخاضاً لأغانيه الكئيبة

كل شيء صامت صار كتيبة

ترفع البيرق فى حفل انتحارى!!

«ينزلان ويسيران حتى النهر، يريان شبحا

جالسا فى الظلام، يقتربان منه»

الداعى:

أنت .. قبّل هذه الأرض خضوعاً

عفّرْ الجبهة ذلاً وخشوعا

وانطق الآن، وقل من أنت، من فتّح

أبواب المدينة

فى دجى الليل وفى جيبى مفتاح الظلام!!

الحسن بن الهيثم:

سيدى.. عفوا.. فقد جئت لكى أسمع هذا

النهر فى الليل يغنى

الحاكم:

هو يبكى.

الحسن:

هذه الطينةُ موَالٌ مُجَمَدٌ

فهو يبكى ليغنى

وأنا أعرف ما كان وما سوف يكون

الحاكم:

أيها الضيف.. انتصب.. قل لى.. أتدرى لغة النهر؟!

الحسن:

أجل.. أعرف ما ينطقه الماء وما تكتمه الأرض الحزينة

والأغانى المطفأة

والرياح المرجأة

وأصم الأذن عما هو كائن

وأرى فى كل شىء قائمٍ غربة ماسوف يكون..

- ٦ -

خيانةُ النهر:

أيها النهر الذى كنت أراه

حينما أنْعس أو أصحو وفى لحظة ضحْكى وبكائى

أيها النهر الصديق

كنت أطويك عميقاً ودفيناً فى دمى،

كنت أناديك إذا كنتُ سجيناً

فأرى بوابة العالم تُفتح

وأناجيك إذا كنت حزيناً

فأرى الطينة تفرح

كنتَ ـ ما بينى وبين العالم الرحب ـ جسوراً وقناطر

ورغيفاً يجمع الأرض على ليلة رقص وتخاصر

أيها النهر الأب الأُم الصديق

جسدى الآن غريق

ودمى ليلة رعب وحريق

وأرى خنجرك المرهف يحتزُّ لسانى..

●

كان قلبى جمرةً فى طحينك الحى،

وكانت أغنياتى

شجرا يطلع فى الليل وعنقوداً على باب اليتامى الجائعين

رأسك المقطوع قد خبأته بين الضلوع

فغسلتُ الشفتين

فى دمى، أفرغتُ روحى فى شقوق الحنجرة

ووضعت الرأس بين الكتفين

وانتظرت العام بعد العام أن تبدأ نسج الأغنيات الطائرة..

●

بعدما أدركنى وجه الوجود المتحول

قلت إن الميت البارد يأتى فى وقود الصاعقة.

قلت إن الأخرس الصامت يأتى فى الرياح الزاعقة

قلت، إن الحق واحد،

وجهه يلمع فى الخُلف ويأتى فى التقابل

قلت إن الأيْسَ مدفونٌ بقلب الليس،

والنهرَ سيأتى فى الظمأ..

●

قلت إن الأرض حبلى وعقيم

أيها النهر الأليم

فانتظرت الطحلبَ الأخضرَ من قلب الرميم

وانتظرتُ الصوت أن يطلع فى صدرك

مسكوياً من الريح ومن قلب الجوامد

ومن النيران

لكنك لم تنطق وأبقيت دمى فى ظلمة السجن رهينة.

●

أيها النهر الخئون

أنا بين الرمح والحائط منصوبٌ مقّيد

جائعٌ منك إلى كسرة طمى وأمومة

ظامىء منك إليك

ربما أقوى على الحلم الرهيب المتجدد

بانفتاح اليأس والأرض القديمة

أو فرارى من ظلام السجن مستوراً على

وجهى قناع من جنون..

٧ ـ يوميات رجل يدعى الجنون:

هذه الأرض التى كانت قرارى وانتظارى
بين ثدييها مشت شمس النهار
خبزت من صهدها قمحاً وأزهار انتحار
لبست برقعها الأسود
(من خوف وعار وانكسار)
دخلت وانكمشت فى عقر دارى
ثم صارت جثة ترقد ما بين جدارٍ وجدارِ..

ـ ٢ ـ

كان فى الحائط شقٌ مستطيل
أخذ الضوء الهزيل
ظلٌ رأسى مستضاء وظليل
دخل الشق به.. حتى سمعت الطقطقة
فى عظام الرأس إذ يُحشر ظلا فى الخطوط الضيقة

كانت الليلة مسماراً بلحمى والثوانى مطرقة
وأنا أصرخ: من يطلق رأسى من جدار المشنقة!!

كلما شاغلتُ نفسى لأنام

(بانقسامى رجلاً طفلاً وأماً ويتامى

وبعدٍ الخشب الأسود فى السقف

وباستسقاء هذا المنور المعتم شمساً وغماماً)

طلعتْ فى القلب أزهارٌ الفطام

بتُويْجات التشهى وبأشواك السنين الضائعة.

كلما شاغلت نفسى لأنام

خفت أن يسمعنى الحارس أحلم

برغيف الصاعقة.

- ٤ -

هذه الشمس عيون بربرية

كلما سامَتَها ثقبٌ صغير

أسقطت فوق اليدين

ظل رأسى

خفت أن يصبح ضوء الشمس سيفاً للأمير

فأنا أحمل فى كفىَّ ظل الجمجمة.

- ٥ -

كلما دقّت يد الظلمة بابى

خفت أن يطلع من جوف كتابى

وجهُ أحبابى وأصواتُ العناقيد التى

نصرخ فى قلب الخوابى.

كلما دقت يد الظلمة بابى

خفت أن يطلع من جوف التراب

حمحماتٌ من خيول الجوع أو رعد الظمأ.

كلما دقت يد الحارس بابى

خفت أن يطلقنى تحت النهار

فأرى فوق الصوارى

جسدَ النهر القتيل

حاجزاً بينى وبين الحلم والشمس التى

أطلقها منى شعاعاً فشعاعا.

- ٦ -

أسمع النهر يغنى باكيا:

(أنظر فى الطمى اللعين

جثةً تبحث عن طعنة سيف غاضب أو مقبرة

وأرى تحت الغيوم الطائرة

كتبَ البدء وعلم الآخرة)

- ٧ -

- : أيها الحارس

(يا إبن اللئيمة

كدت أن أخلع عن وجهى القناع)

قل لمولاك لكى يطلقنى قبل الشتاء

ربما أطفأت الريح جحيماً فى الدماء

قل له أن يفتح السقف وأن يمنحنى

سنبلة تطلع من نهد القمر

قل له: يمتلىء الرأس حنيناً وكآبة

فاقطع الرأس وأدرجه بتابوت السحابة

(علنى أصرخ فى الرعد الدفين المتكلم

وأرى حنجرتى تسقط فى الأرض حريقاً

أوتوا شيح دماء.)

١٩٦٨/١١/١٢

من ديوان كتاب الأرض والدم،

اليمامة الدامية

- ١ -

«من رؤيا ١٩٦٤»

كان فى قلبىَ عش من نديف الزغب الأخضر
مجدول بمنديل النزيف
ويمامة.
كلما أثقلنى الحب رمت زهرة نار وعلامة
طوَّقتنى بالمواريث التى حَمَلتُها من قرية النمل القديمة
فأرى الشمس تدلت (فى غواشى الحلم)
أعطتنى الشعار الملتهب

فتقاسمت مع الأرض الرغيف

وافترقنا

(سأعطيكِ إبريق ماء غريب

لكى تغسلى فيه حزنى

وكى تغرقى فيه ما اعتاد قلبى الكئيب

من الموت،

لا تتركينى ولا تسمعى من تراب الدم الحى رؤيا

ولا تطلقى طائر الدمع منى

دعيه يردْ دارة الخمر والشعر،

إن الرؤى لم تزل من ضلوعى تفرْ

ومازال خبزى دمى الحى،

أُنسيت ما كنت أعددته من حكايا

لكى أطرد الصمت عنكِ.

تعالى بنا ننطلق ساعة فى الظلام

لتهوى علينا سحابات أحلامنا باليمام المضىء

ونطوى كتاب النزيف..)

كل شىء دامع، كل رصيف
تنثر الريح عليه الذكريات المبهمة
كل شىء كان يُستقطر منى
وأنا كنت أغنى
فى خلايا كل شىء
- وأنا أنظر من طاقة سجنى -
رفرفت وانزلقت إحدى النجوم
غطست بين الغيوم
طلعت نجما نحاسيا على سترة سجانى الغشوم
وأنا أنظر ما بين الزوايا
يصعد الطفل الذى يلبس وجهى وخطايا..

(تعلقت بالقمر المنخفى وراء الضباب
ولم يتقدم معى جسدى المتعطش للنوم،
لم يمتلىء بالتشهى الجبلّى،

خلّعنى الرعب من لغتى الرؤيوية
وعرّفنى فى احتراقات ألو وانها الغرينية
رموز الأساطير والشجر المتهدل فى طرقات الخرافة
وعرّفنى فرحة الشمس والقمر المتكسر
فى أحرف الأبجدية.
وعرفنى وطنى واغترابى)

يصعد الطفل الذى يلبس وجهى وخُطايا
يدخل الساحة فى مواله المغترب الإيقاع
تغشاه الرؤى منفتح العين، يغنى
- راقصا - يحلم بالشمس التى تطلع من عنف الدما
والقمر الساطع فى جوع الجسد
كلما مر بأبواب المدينة
نزّمن أخشابها الطمثُ وغارت سوسة الشهوة
للطمى وأنفاس الولد
نزمنها الطمث حتى اصطبغت منه الزوايا الحجرية
يهرب الطفل على جلبابه بقعة دم
عندما تضرب ساعات الميادين تمام العاشرة

يتخطى حائط الرؤيا فأكسوه بلحمى وعظامى
(أُصعِّد فى السلم الدائرى الذى ينتهى بالسقوط
وفى مفصلى الثلجُ، يهتز فى أضلعى عنكبوت القنوط
هنا.. كنت فى قرية النمل وحدى
وفى عتمة الليل يبكى دمى الطفل،
يشطرنى - خنجر الرعب طفلين
- فى ظلمة الروح - يبتدئان الحوار
بحنجرتى يتراشق صوتاهما بالحجار
وفى قرية النمل ألقى ربيع البلاجرا بأزهاره
شارة فى الصدور
صرخنا إلى أمّهات مقطعة الثدى..
فى سنتى العاشرة
رأيت سقوف الظهيرة تهوى
وتهجر صوتى الخرافة
تطاردنى بومةُ الصيف،
أبكى لأُخفى خفايا التواصل،
أبكى إذا ما تساند فوق الثرى حجران

وفى ليلة الجوع ظللنا حلم بزهور المطر..)
وأنا أبحر فى صوت التواشيح الظوامى
والمواويل الدوامى
وأرى فى قمر الصرخة مهمازى ورمحى وحسامى
أركب الناقة ما بين شقوق الصحراء
قربتى الصهد، ويأسى خيمتى،
والشمس فى رأسى سفافيدُ الشواء..

(توحدتِ بالنهر والأرض حتى سمعتكِ بوحا
يغمغم فى كل ساقية خشبية
رأيتك مغمومة القلب فى كل صوتِ
ومجهدة الوجه فى كل تقطيبة واصفرار
ومطفأة العين فى كل دار ومرخية الشعر فى كل صفصافة،
ورأيتك مشبوحة فى الرياح
ودافئةً تتفجر منك الحدائق فى ردهات القرار
تنفستُ ريحك فى كل دفقة ماء وفى كل
توقيعة من مطر..)

وأنا أحمل فى هودج أسفارى المخيفة

ذهب التاج وكنز الأمراء

ومراسيم العطاء

هللوا يا فقراء

هللوا يا..

●

كان فى قلبى عش من نديف الزغب الأخضر

مجدول بمنديل النزيف

ويمامة

كلما أثقلنى الحب رمت زهرة نار وعلامة

وأنا أخلع لحمى وعظامى

أخصف الأوراق - مما تحمل الريح - قناعا

أعبر البحر وأمشى فى الثغور

أدخل الأرض وأغفو فى الجذور

وأعود..

●

حينما نكرنى صوتى وأنكرتُ قداسات الجسد

كنت ـ من رحلة موتى ـ

عائدا .. أدخل أبواب المدينة

فأرى فوق الرماح

جسدى الميت مصلوباً،

ومنديل النزيف

مزقا فارغة،

أنظر فى دائرة الأفق الفراغ..

١٩٧٠/٩/٣

من ديوان « شهادة البكاء فى زمن الضحك».

مرثية عمر

طاردنى فى خفه المقطوع

يضربنى بالخنجر المطوى فى عباءة الخلافة

متهماً إياى بالعرافة

يطردنى إلى مدائن الهزيمة

يجعلنى حُجَّته الغراءَ فى مواقف القيامة

بأنه جوعنى ولم يجع !!

بأنه فضّحنى، غربنى، فى داخلى نفانى

وجاءنى معتذراً أليفاً

ساومنى على خراج الصمت باللذائذ القاتلة المحرمة
علمنى التنازل القمىء فى رشاقة وكبرياء
العالم ـ الخريطة الممزقة
العالم ـ الوجوه والملامح الملفقة
طاردنى فى خفه المقطوع
يضربنى بالجوع..

من أنت يا محدثى فى الجذر والفروع
من أنت يا مرتحلاً فى لبن الضروع
وصائحاً مندلقاً من الحوائط المخربة
وراكضاً فى عتمة السحابة
من أنت يا أمومة الألفة يا أبوة الغرابة
يا نهرا فى الصيف، يا فاكهة فى كرمة الخريف
من أنت يا مغُيَّب العينين فى حمائل السيوف!!

أخرجنى تحول الفصول
وساقنى من حفرة الرفض إلى شوارع القبول

أوقفنى منتظراً فاكهة الألوان
فنشرت نسيجها عناكب الذبول
استنوقت جمالنا وأذنت فى الأسطح الدجاجة.

مسافر فى اليأس والكآبة
تضربنى فى عدوها حوافر السحابة
أقرأ ما تكتبه الشمس وما تكتبه الكروم
أعود من بوابة الخروج
مكتهلاً، تركض فى ملامحى الكآبة
تغسلنى مواحق النسيان من ذاكرتى،
تحترق الكتابة
وتنبت الحراب فى الحناجر
وتعشب الخناجر
وتنبت العيون فى أقفية الزحام
ويؤكل اليأس على موائد الطعام
متبلاً بالسحت والحرام..

الرجل المثلم الفقير.. فى متاهة الصحراء

قابلنى، أوطأنى الرداء والعباءة المرقعة

أقعدنى فى ظله، قاسمنى لقيمةْ،

ثم رمى لثامة.. فاشتعلت فى اللحية الفصول

والتمعت فى عينه شرارة البدء وغيمة الوصول

وانتقلت ما بيننا قربته باليأس والعزاء

وانشعب الحوار..

(أخرج من أكمامه دِرّته القديمة)

الرجل الملثم الفقير

قاسمنى ثريدة الرمل كأننا سنأكل الصحراء

قاسمنى الجرادق المرة والسراب

وقال لى: تستوجب الحدَّ إذا زنيت

فما تقول فى عالمك ـ الربيطة

والنهرَ الديوث والطمى الذى ينبتُ زهرَ اللواطة

وشجر الزنا وسفلس الكروم!!

وقال لى: تخون لو أضعت بعْرة من إبل الجماعة

فما تقول فيمن ضيع الإنسان فى ارتداغه الذليل!!

وما تقول فيمن خالس الرياح سرها

روضها ، أقامها شجيرة عارية أو حائطا أو مقصلة!!

وما تقول فيمن روض النهر

وجدّ رأسه أقامه خرّارة ومزبلة!!

وقال لي: ما بين شرك الشك وشرك اليقين

دخلت في هاوية التوحيد سائلاً

فهالكَ الصمت وهالك الظلام

فما تقول في الآلهة الألف التي تموت أو تبعث كل عام

تأتيك في طقوسها تسألك الصمت وتطلب الخراج

تسألك العبور في القناطر الموسومة

تمنحك الحياة لو دخلت طائعا في السلَب المنهوب والغنيمة

تمنحك النصر إذا قنعت بالهزيمة!!

الحرس الذي يتوزعَ الآنَ بكل لون

يثقب وجه الأرض

يقيم حائط السجن أمام كل بيت

يزرع في حدائق العالم شجر الكراهة.

ألبسنى عباءة اليأس وظمأ الغمام

ونقشت دِرّتُه خطوطها الزرقاء فى القلب وفى العظام

حمّلنى السلام

لنهرَ العقم الذى يطفح فى الزحام

والزور والأرصفة المراوغة.

حمّلنى السلام

للجمل الناقة أو للبشر الأنعام

والجوعِ فى القرى الممرغة

حمّلنى السلام

لكل ما يُكتب أو يقال

خيرنى ما بين أن أحمل شارة النفى ويبرق الظلام

أو أبدأ الرقص على طقوس الطرق الواضحة العريضة

(ما طعم ما يدره ثدياك يا مومسنا المتوجة؟!

حليبك الممزوج بالقصائد المضرّجة

أحرقنى. فاخترت أن أجوع)

قابلنى مرقَّع العباءة

فى كل رقعة دماءُ قرية،

والخيط من حشائش الحقول

رأيته يضحك أو يبكى بكل لهجة

سمعته يقول:

أغنية دامية الإيقاع تسأل الرفد وتسأل الفصول

أن تملأ المخلاة بالقمح ليبدأ السفر

من كل ما استُبيح من قرى ومن مدن

إلى طريقه السفلى فى المناجم الحرام

١٩٦٦/٩/٥

من ديوان، شهادة البكاء فى زمن الضحك،

مرثية إنسان الشمس القديمة

كل شئ كان يُستنْضح منى
كانت الأرض جانينا فى دمى لم يبلغ التاسع،
والشمس وأُقمارى الخبيئة
كان فى قلبى احتدامُ الشجرة
واختمار الطمى والشعر ـ الطلوع
كنت ـ مما يملأ القلب ـ أجوع
وأغنى للمياه المسكرة
علهًا تطرحنى زنبقة فى عروة الأرض

التى تطلع منى

كنت من حبى أَلفُّ الشرنقة

وبها كنت أصلى لأموت

قبل أن يحملنى منى غرابُ العاصفة

وانسحاقى فى مراسيم السكوت

* * *

كنت ممتد العروق

نازفا أُسبح فى ليل السديم

كنت فيه روحه الحرة والمحور والدائرة المشتعلة

والمدار الفوضوى المتحول

كنت أبنى ـ بين ماأخفيه فى القلب وبين العالم المقبل ـ جسرا للتواصل

فأنا أفطر فى الصبح بغابة

أتسلى بحوار البرق والرعد اللذين استترا
تحت الربابة

ألبس الأفق على رأسى شالا وأدير العاصفة

خاتما فى أصبعى،

والبحر خفاً، والكتابة

معجما تصرخ فيه لغة الخلق وتنشق وجوه الكائنات..

* * *

آه يا أرض النعاس الأبدى
أُطفئت نارك، حطّت فى القلوب الحجرية
والأغانى الذهبية
بومة الملح التى تولد من بطن السكوت..
ها أنا.. مختطَفٌ يحملنى منى غراب العاصفة
مبعداً إياى عما كان فى «الكاؤوس» منى
فأنا فى طرق الغربة أستجدى اللقيمات المخيفة
وأغنى من عذابات التخارج:
آه يامملكتى المبتعدة
أنت فى القلب وبوابة قلبى موصدة
وأنا أهرب منى
عابرا فى ظلمة الأعين والأوجه،
مسجونا بقلب الكائنات الفاسدة
أتسلى بانتظار الكذب الأسود أن يفقس فى عش الصحيفة
ميتا فى الليل محمولا على نعش النهار

داخلا فى الريح أعراف العناصر

فأنا ملح البحار

وحديد السرج والمحراث، والطينةُ فى أرض المجاعة

ونحاس فى سيوف الحرس المقبل من كل طريق

وأنا نار الحريق

ومدار القمر المعتم والشمس الكئيبة

وأنا الطبل الذى يقرع فى كل كتيبة

وأنا زهر الدم الطالع من كل قتيل

* * *

طفلتى.. ياطفلتى المشتعلة

جمّعينى بعد أن بدّدنى الليل الطويل

جمّعينى من فم الأشياء والظلمة

صُبّى نارك الأولى بروحى العاشقة

وهبينى ولداً

ترقص الطينةُ فيه بالمياه الخالقة..

١٩٦٧

---

* من ديوان «ملامح من الوجه الأمبيذوقليس»

دِرْعيّةُ مديح

تركتم دمي سبياً.. فليس يجيرهُ

عــــدوٌ يُداجي أو صــــديقٌ يصــــاولُ

وحمٌّ قــضــاءُ الليل ظلمــاً وظلمــةً

وقـــد حُبكتْ دون الفــرار المــخــاتلُ

فــبتُّ على ظنٍّ دمــائي تؤجّهُ

وتذروه في الريح البــروقُ الصــواهلُ

يقلّبني شك ويأس مــخــامــرٌ

وتنحتُ صلصــالي الرجــومُ الهــواطلُ

فـتـشـخصُ هولاتً من الرعب شُزَّرَتْ
ولُفتْ على الأعناق منهـا الجـدائلُ
أمـوت وأحـيـا لحظةً بعـد لحظة
وتصـرخُ فى لحـمى الظُّبـا والذوابلُ
أهيئُ أكـفـانى وأصـرخ ذاهلاً :
شـربتَ سرابَ العـمـر فـيـمـا تحـاولُ!!
فكلُّ بلادٍ ترتضـيـهـا إقـامـةً
فـجـيـعـتُهـا فـيـهـا، ومنهـا النوازلُ
هزائم جـلادينَ تزهو سـجـونُهم
وتعلو على هام العـبـيـد المـقـاصلُ
فـأىُّ رثاءٍ يرتضـيـه مـرزأٌ
وأىُّ مـديح ترتجـيـه المـزابلُ!!
نزلنا إلى الأرض التى قـام دونَهـا
من الـثـأر إرزامٌ وهـامٌ مـواثـلُ
وآفـاقُ أجـداثٍ وهولٍ تنَظَّرتْ
لوازبَ طينٍ تصطفـيـه القـوابلُ
فـيـبـدأُ بدءُ الأرض نارَ قـيـامـةٍ
زفـيـفُ تعـاليـهـا البـروقُ الجـوائلُ

تضيءُ وتعلو ثم تذْوى رعــودُها

وتركضُ في العظمِ الرمـــــيمِ الزلازلُ

ويستفتحُ الهرجَ النشوريُّ نافخاً

ببـوقــاته الشـعــرُ الغـويُّ المـعــاظلُ

فتعرفُ ماتبغي وتنكرُ ماترى

وتســعى على هول الســراط القــبــائلُ

صفوفاً من الموتى يَرُبُّ رفاتَها

وأكـــفـــانَهـــا رجعٌ من العـصف شــاملُ

فتهوي أعاليها وتعلو وهادُها

وينطق مكظومٌ وتبكي الثـــــواكلُ

فــشُدَّ بأوتار المـــدائح نغـــمــةً

يُرتلهـــــا الدمعُ الحــــرونُ المناضلُ

ـ١ـ

أيا جارتا..

كنا من الرمل نطفةً

وقبضةَ جمرٍ فى حديث مرُجَّمِ

ورؤيا سلالات من الشعر أوقَدتْ

بأوتادها الأسباب.. فالأفقُ ملعبُ

يطير به صقرٌ من الطين والدمِ

يظلله بيت من الكون شاسعُ

أليفُ الذُّرى بالضوءِ والريحِ،

والسرُّ ساطعُ

يخط خوافيه علْو رميَّةٍ من البرقِ

تعلو فى بهيمٍ مرقَّمِ

وياجارتا..

كنا من العشق قبلةً

تطاولَ فى راووقها الدهرُ سكرةَ وأرضَ

غواياتٍ ودرعاً مُفاضنةً تحدَّرُ

من جيلٍ لجيلٍ، أديمُها

صفائحُ مسبوكٍ من السعى ينتمى

لعرق عروق الأرض من عهد آدمِ

هى الدرعُ..

ليس الكونُ إلا منمنماً

من النقش والتصوير تُرغى رسومهُ

وتزيدُ مخضوباً من الوشى والصوى:

طباقٌ سماوات أضأن كواكباً، وأنجم أفلاكٍ

سرين، وقفرةٌ من الأرض يعلوها

نجيعُ الملاحم

تطيرُ شرارات السيوف تشقُّها
وتحفر فى قلب الصعيد المدمَّمِ
فجاجاً لمن يسعى، وسحراً لمن يرى،
ونبع مياه من صفا الصخر فُجِّرتْ
وسالت مسيلّ النارِ والشعر والرؤى
ووقدِ جنونٍ فى غرامٍ مكتَّمِ،
ووديانَ يخضورَ من النبت بازغٍ
وأضغاثَ أعشابٍ وألفاف غيْضةٍ
وقطعان رعيانٍ ونقعٍ تكشفتْ غواريُه عن
هجرةٍ بعد هجرةٍ.. فأخلاطُ أعراقٍ
وأمشاجُ نطفةٍ
وهُجنة أوشابٍ وجوهرُ رؤيةٍ
تفتّح فى ليل الكلام المجمجمِ
أوائلُ أشكال الحروف..
فهل سرتْ وعولُ مسامير الكتابة،
غرِّبتْ، وشرِّق من وادى الملوك محُفر من
الطير والحيات حتى تلاطمت على الدرع من

ماء المرايا غمامةٌ ورُقيةُ ترياقٍ بكأس مسممٍ؟!

ظمئنا فلمك نشرب؟! أم المشهدُ الذى نرى سحر

فوضاه دبيبُ قيامةٍ؟!

أما الدرعُ من حتٍّ الدهور تقشرتْ

زخارفُ رؤياها..

فشفٌّ مجازُها بحَيرة مرموزٍ ومرمر هائل

من الوحش والثيران يُرخى جناحه ويقُعى على

باب القيامة ناظراً إلى الغيب والأفلاك يُحصى بمقلةٍ

من اللؤلؤ المكنون والشذر أمةً تجئ وتمضى

بين موتٍ ورجعةٍ؟!

أم الدرعُ مذخهورٌ من الموج مقلعٌ بمستحصدِ الرايات

حرباً وغيلةً

وختلَ خياناتٍ وفتلَ حُبالةٍ

تريغُ إلى خوفٍ وظنٍّ ومبهمٍ؟!

ـ ٢ ـ

هى الدرعُ....

هلَ شئٌ سوى الدرع شاهدٌ

يشعُّ بوجه الله مجلى وخلقةً

وهل حلَقَ الفولاذ إلا مجرةٌ وتدويرُ أفلاكٍ

وترصيعُ أنجمٍ؟!

هى الجوهر الأبقى،

هى العنصر الذى تحدرَ منه الشكلُ

فى كل صورةٍ.. فرفرفَ فوق الغمر منها مقَّدرٌ

من الخلق والتكوين فالعرشُ قائمٌ،

يجلجلُ متْنَ الروح..

كلُّ قراءةٍ بلادٌ وتأويلٌ ونارُ كتابةٍ

فيا جارتا..

هل هذه الدرعُ فكرةٌ تأوَّلها الإبداعُ

من لحم معجم؛

أقامتْ بمكنون المدائح ثأرها وترجيعها المكظوم فى

كل آية تجلجل فى صمت الرواق المهدم!!

متوناً من الفولاذ.. حفت شروحها وشعَّت

تقاليب وذيلها من النسيج المنمنم وذيلها من كل عصر مشطب من

الطعن وانهلت جراح

قديمة تجددها فى كل رهجٍ بلاغةٌ هى الزحفُ
والإدبار والبعث والبلى وخصفْ أضاليلِ
وكشفُ مغيبٍ من العار، والموتى فراراً ورهبة،
وجرحُ شهيد لايجفُ، وصرخةٌ من النقش
تعلو فى خراب محوَّم
فيصحو من الزنجفَر ينبوع خضرة من العشب والنوار
يسرح نحلها، ويسرح عشّابون أهل كهانةِ
وطب وأسرار وسحر كتابة يطير بها الجعرانُ
والصلُّ يلتوى مذنّب مرجومٌ من الجن
ماردٌ من الإنس يشوى الحوت فى عين كوكب
بعيد ويرعى الخيل فى حرْج ظلمة
ويشحذ نصل السيف فوق مسنّنٍ من
البرق والأنواءِ يلقط جمرة يثّقب مزمار الفضاء المقسم
على سلم الأنغام فى الكون دائبا تشدُّ
رياضيات أدوار رقصه
بناء سماوات وكرةٌ مغزل ورعدة مكظوم النشيد بأعظمى

وياجارتا

هذى هى الدرع فانسجىِ

مدائح فرلاذ مُرِنٌ منغم

على الدرع كانت لأمة الحرب ثُلةً

معممة بالموت صبراً وحسبة،

وظل عقاب تحته الأرضُ لين من الطين

مطبوع بصورة غابر

من السعى:

وراّقون تحت مقرنص من المرمر المكتوب،

خيل تحملت سفوف بهارات ومخصوص حكمة وشرح نصوص الفتح صلحاً وعنوة،

وثلة صيادين يخفون خلسة أمام جيوش الغزو أعشاش قبر ومزحف حيات ومرعى قنافذ،

وحامل أختام الملوك مقلِّب بكفيه أسماء العصور،

وراجلٌ يقود حصان الريح هوجاءَ أو صباً رخاء،

وحفارون فى الشكل غامروا إلى مكمن الصلصال

حلماً ونفحة لعل ذرارى الروح تصطفُ أمةً

تغادر متن الدرعِ.

بحر، ونائم من الكلل الدهرىً يصحو لغفوة

يرجرجه بحر من الوجد قُلّبٌ

وصبوة مكظوم من المدح

نافخٍ بأبواق مدًاحين

جُنوا بمارأوا.

نوبة رجوع

ثقلت عليَّ عباءةُ الدم والرماد
وثقَّب الرملِ الطرىُّ جروحَ أوسمتى
بمعجون النياشين الصدئية والرميم الهش من عظم وفولاذ،
وكانت فى فجاج الوح قافلة،
وسبعة إخوة ماتوا صغاراً،
والتميمة فوق صدرى سبعةٌ من حَبٍّ ما
حصدت يد الأعمال والأخوال:
جوهرُ حنطة، خرزٌ من البرسيم،

والرز المقشر، كهرمان العدس،
بؤبو حبة سوداء، والذرة الرفيعة،
والتماع السمسم المبثوث
هودج ناقة ويدان يقطر منهما العُنّاب والرىُّ
المقطّر فى حشاشة عاشق..
ثقُلت علىَّ عباءة الدم والرماد
والصبح يجلو فى عظام المحجرين مشاهد الجسد الذى
يرفو فتوق الروح ثم ينفِّر الطير الجوائم فى
مُنمنمة التذكر ثم يعلو قبة من أغصن
اللبخ المسجع باليمامْ
والله من خلل الغصون يمد شمس يديه
ينسج خضرة الذهب الحرير، يشد قوس الأفق، يرمى سبعةً
من أُعطيات سهامه:
نفح الصبا قبل الغروب، مسابح الأسراب عائدة
إلى الأعشاش،
والكحل المفسفر فى عيون الصحب من
بقر وجاموس، ونوم الحب في العنقود قبل قطافة.

وأنين أخشاب السواقى، والملاحم

فى رباب الشاعر الجوال، رائحةً منشرة على

الملكوت من ثوب الأمومة والعجين وطلعة

الفجر المندى بالتراب وسكر النعناع والرُّز

المفلفل والكوانين المضيئة فى عشاء السبت

والكتب القديمة والمصاحف،

كنت تحت هواطل النّبل المقدس أتكى وأكلم الحصباء والجرو المشاغب والحمام

وأعيد سبك ملامح الموتى وتهجئة الحروف

وأعيد سرد تهجُّد الأبوين بالقرآن مابين

العشى وركعتى فجر يطل من الكوى فى السقف

أنسل من لحاء النيل، أفتل ريقة

وأشد معقود اللجام

وأعاهد الموتى، وأضحك إذ أرانى أمةً ـ وحدى ـ من

الخلف الكثير، وأَحبْكُ المقلاع، أختل

للشوارد من مصعلكة البهائم والبنات وخطفة الغربان للكيزان والثمر المبشر،

كنت مـابين الضـحى وكتـابة القرآ ن فى الألواح إذ سقطت من الصدر
التميمة.. فالبلاد حرثٌ وحرائون، والأرضُ التميمةُ، والحصاد

ميراث أهل ينسلون من الغمام إلى الغمام

فى الخبز طعمهمو وفى الألواح رائحة الفواصل والرغيف،

ثقُلت علىَّ عباءة الدم والرمادْ

والريح تصـفر فى بوالى العظم.. أذّكر التـصاريف التى علُمْتُ من لغة
الصفير إلى البهائم والحمائم والأغنام،

فنفخةٌ بين القواطع لاستقاء الخيل والأغنام،

أخرى ـ بين تقطيع ومدٍّ ـ فالحمائم وقُع

فوق الذراع،

ونفخةٌ فى هيئة التقبيل تصفر من مقام العشق

فالأبواب تفتح والنوافذ،

بين إبهامين فى الشفتين أو سبابتين يهُر كلبٌ

أو تفر دجاجة أو تُؤذن النوقَ العصيةٌ

بالحليب أو السفاد.

ثقلت على عباءة الدم والرماد وقضقض الزلزال

هيكل مجثمى والريح تصفر فى

بوالى العظم نفخ الصور.. هودج ناقة ويدان يقطر منهما ورد الدهان
ومهرة صهلت من الآباد،
طير الذكريات منفّرٌ،
«وشجت أعراقى بأعراق الثرى»،
وتنفرت أمشاج ماعلّمت أو أُنسيت،
مُنحلٌ الجدائل من أصيل الصيف منسكبٌ،
يداى على حرير الأُخضر الذهبى،
أنصت، ثم أرقب سُبحة الأطيار عائدة،
وأنظر فى ذرى النخل البعيد غلالةً هدابها
رهجٌ معصْفرة فتائله
وكف الله تغمد سيفه الكونى فى غمد الظلام
ثقلت على عباء الدم.. والصهيل مُرجّع..
يامهرة البلد البعيد.. بعيدة،
وبعيدةٌ نار المضارب والخيام..

١٩٩٢/٦/٢٩

روتردام - رملة الأنجب

* من ديوان: «فاصلة إيقاعات النمل».

هلاوس ليلة الظما*

غبشٌ يبلله دخولُ الليل، والغيطان تسحبُ من بدايات النعاس
تنفُّس الإيقاع منتظماً على مد الحصيرة والمواويل،
ـ الزمان كأنه فجر قديم مستعاد ـ
قد كنت مضطجعاً أعابث شَعَر بنتى..
الصغيرة أفزعتها قشرةُ الدم والصديد على
عظام الأنف
أهذى أم هى الزنزانة انفتحت على زمنين
واتسعت على هول المكان؟! ـ

ريقّ وجمرة حنظل، تتشقّق الشفتان:

ـ : ياعبد العليم

مااللجرار ادحرجت والقلة الفخار عفّرها الرماد

والملح، والنهر القريب مشققاً،

ما للتحاريق ارتعت بالجمر والنسج المهلهل أعظمى

وأديمَ هذا الليل.. ياعبد العليم!!

أهذى وألهث أم هى البنتُ الصغيرةُ من ظلام الغيمِ

تخرج فى يديها الكوز والإبريق تلمعُ فى

نحاسهما الزخارفُ بالعناقيد المنداة؟!

التفتُّ.. فراعها أن القيود تعض

لحم المعصمين فيرشح الدم

فاستدارت وارتمت فى عثرة الرهبوت.

ـ: قد نبهت «رحمة» أن يكون الماءُ

والفخارُ مشمولين بالسعد المفوح واللبان.

.

قال المخنث للمخنث: إن هذا الأهبل المجنون يهرف بالكلام

(فعرفت أنهما هما..

والجسر بين الصالحية والرشيد مرجع للبلغلم

الدهنى فى صوتيهما)

قال المخنث للمخنث: «إن نوبة نومى اقتربت فأخرس

صوته بعصاك»

فانفجرت برأسى الصاعقة

كان الصدى متشظياً بدم الهلاوس

آه ياعبد العليم

لم يترك الأهلون من نبل العصا فى

لعبة التحطيب ميراثا لأوغاد الزمان النذل..

هل رجل وضربته تجئ من الوراء!!

أَدركُ دمى بالبنِّ بعد الماء ياعبد العليم

كانوا ثلاثة أصدقاء

والموت رابعهم، وأيديهمُ تُجمعها قِصاعُ الفَتِّ فى

ليل الموالد بعد رقص الذكر والتخمير..

كان أبوكَ يهذر فى

مقام الحشد تأخذه الجلالة،

وجهه الطينى يلمع، والعصا فى إصبعيه

تدور مثل مغازل الأفلاك،

ـ يا «جمل المحامل» ـ إنه جملُ يطمطم من

ضراب الرقص فى أعضائه

يا «أم هاشم».. ثم تنكسر العصى على عصاه

ثانيهمو ينشق عنه الحشد:

قفطان يضئ بياضه الزَهرىُّ،

والشالُ المرفرف، بسطةُ الأفيون، والقد النحيل

كالخيزرانة، والعصا ليست تُرى من كرّها بين اليدين،

يفحُّ، يصفر، يرتمى وتداً، يلين وينثنى كالصل.. آه ألف آه

هى نقرة الطرف الرشيق من العصا بِفجاءة التلميح والتصريح..
لاتجدى مصاولة ولايجدى دفاع اللاعبين

يعلو ضجيج الحشد مابين الصهيل الحر والفوضى

وإنشاد الذهول

مسٌ وطائفُ بهجة ورؤى جنون الوصل توصل نشوة الملكوت بالإنسان
فى وجد الجنون

حتى إذا اقتربت خطا عمى «معوض» بالعصا حط السكون

هو صخرة قدتُ من الأهواء والخمر والرخيص

فأفردته العائلة

هجرته زوجته وفر بنوه في تسعينه الأولى

فزوجتُه الزجاجة والعصا والذكريات مع النساءْ

كفاهُ كالمذراة ساعدُه عروقُ السنط خطواته

انصباب السيل،

كان الحشد ينصت وهو تغمز عينه ببقّية من

كحلها المعتاد من عسل وششم،

دارَ ملتفتاً إلى ركن النساء على السطوح

وحاجباه يراقصان الشمس والحناء والذّكر الغوية

ثم مر اللاعبون

وتخلّعت أعضاؤه خشباً وفولاذاً ورقصاً عارى الإيماء

كان اللاعبون أمامه لعبا تطيش عصيهمُ

وتطير من أيديهمو، والكحل فى عينيه يغمز للنساء

والليل يطوى خيمة الصبح المعفر لانعقاد الذُّكر والتّخمير.. وأشتبكت

أصابعهم بدفء الفت واللحم والسمين،

ورابع الأُصحاب يرقبهم.. يطيف على الرؤوس مرفافاً كالصقر،

ينسج من تواشيح الصبابة والولاية

مدرجَ الكفن الحرير..

لاظوغلى رابع أذان للفجر الموافق ١٩٩١/٣/٥

رملة الأنجب ١٩٩٢/١٠/٢٥

من ديوان «احتفاليات المومياء المتوحشة

بكائية

ياقمر الطفولة القديمة

هجرتِنى، حولتنى صبية ناهدة سقيمة

بالغنوة الباكية المبتهلة

للحب والتخاصر الراقص والأبناء

يطلع تحت النهد

عذابها الأبيض وانتظارها للشفة الرحيمة

واللغة العذراء

ياقمر الطفولة

حولتنى فى الطرق المأهولة

شجيرة تثقلها الفصول بالعطاء

جعلتنى ألبس ثوب الصقر

أطير فى غمامة داكنة، أنسج بالأمطار

أغنيتى، أنتظر الفرار

من قفص الرياح نحو الشمس.

حولتنى فى البحر

عينين تنظران فى العمائق المظلمة الرهيبة

وشفةً خرساء.

حولتنى قنيصةً مطوية الجناح

تخوننى الرياح

ترقد فى الجراح

الشمس والكواكب المحتجبة

والغيمة المشتعلة

ومطر الأغنية الغريبة

وهبتنى فجيعة الميلاد

من رحم الرماد

فى أرضنا ـ المقبرة الباردة العروق

ياقمر الطفولة

أبكيك فى أغنيتى الضاحكة المخبولة

أبكيك فى طينتنا المجبولة

من غرين الموت ومطر الحياة..

من ديوان «ملامح من الوجه الأمبيذ وقليسى»

المسافر

مجموعة من الرجال والنساء:

بعينيكَ يشتعل القمر الأخضرُ

وفى شفتيك تجوس الأُغانى

وتحترق الكلمات الزوانى

وأنفاسك المشعلات الرحيمة

تشق محاريثُها اللهبية قلب الهزيمة

لينبت فيها الدم المزهرُ

وفى قدميك عبير القرى والملوحة،

في إبطيك تراب الدجى والنهار

وفي الشِّسْعِ من نعلك الغرينيِّ تواريخُ ثلج ونار

ونحن هنا ـ عند باب المدنية ـ نقرأ في كتب الإنتظار

ونغزل منها فضائحنا

نتقلب أو نترقب بارقة من عطاء

ونرقّب وجهك.. علّك تأتي إذا الصيف جاء

فتمحنا شارة الطمث،

تمنح أعجازنا الخشبيةَ روح الذكورةِ،

تمنحنا من قصائدك اللهبية أو من

طقوس الكهانة بعض الشرار

ونحن هنا ـ عند باب المدينة ـ جئناك مستقبلين

لتُسْمِعنا عن رحيلك في طرقات المجاعة ليلا

وفي طرقات الخيانات طول النهار

وعما لبست من الرقع السنوية والطيلسانات،

عما تداوله الصهد والثلج من وجهك المتفجّرِ

بالضحك المتألم والإكتئاب الفرح

لتُسمعنا عن حكايا الدماء التي طرحتها

خيول الشرائع

فانسكبت تتلوى وترقص من ساحة لرصيف لباب..

المسافر:

أتيت فى عباءة الكهولة

معلقا فى حافر الرياح ضائعاً

أركض تحت قمر الطفولة

مجسدا فى شجر مشخصا فى حائط مهدم

وفى التجاور الذى يجمع - كى يفرق - الأشياء

أرقص فى تداخل التخوم

أعبر من مملكة لمملكة..

فى هذه المملكة - السطوح

حملت من هزائمى تمائم الفتوح:

الحبر فى الدواة

والرعب فى دوارق الغسل،

ولغة التخليط فى الصلاة

والقلم الذى اقتطعته من قصب الجروح
أدقه فى بيضة العالم أو فى رحم الأشياء.

فى هذه المملكة ـ الأشياء
تَّدرع الصخرة والمياه
تَّدرع الغيمةُ والرياح والزرقة فى السماء
بالصمت والقشرة والحضور
ينفجر امتلاؤها عن بذرة الفراغ
وبانفلاتها الموحش فى دوائر المصادفة..

دخلت عبر سبعة الأبواب
سمعت فى حنجرة الجوامد
نزوعَها الأليم للتوالد
سمعت فى الركاز
الصرخة ـ الحصان والمهماز
وقفت عند بابها المصهور
مغتسلا بالنار
منتظرا أمارة العبور

فطلعت من جسدى رفيقّتى وزوجِتى الضاحكة العينين

قَصيدةً .. وحملت سريرتى أجنتى

لكننى أقول ما رأيت

-

وما رأيته مختلط مسحور

مستتر كالشمس..

من ديوان: «ملامح من الوجه الأمبيذوقليس»

مهر الصيف

من أطلق مهْر الصيف!!

يجرى بسنابكه الخضر على أطراف الجسر
بصهيل صلصل فيه جرس العشب
وزفيرٍ ينضح بالزبد الفضى.

من أطلق مهر الصيف!!

ينطلق فترقص معرفة خضراء
يندفع إلى تيار الماء
مرتعشا يقطف أزهار البشنين
يقتات من الياسنت ويركض فى الأعماق
ويشم العشب النابت فى أرحام الطين
ويخوض خلال الطحلب والأصداف
يندفع إلى الشمس المصلوبة فوق الجسر
ويشب على رجليه وتلمع فى عينيه الريح.

من أطلق مهر الصيف!!

طفلىِ فى ظلمة بطنى يحلم أحلام الشهر الرابع
يتخلق منى عضوا عضوا
يتدفق فيه الماء الطافح من جنبى
يتسل إليه عبير الأرض خلال الدم

من أطلق مهر الصيف!!

حمّلنى ما حمّله الطمى من الأثمار
أثقلنى بالطير النائم فى الأُشجار
وانطلق.. فدق الحافر وجه الطفل
أسقط حملى.. أجهضنى مهر الصيف.

نبع من ذهب وجزائر فضية.
وطيور حمر شتوية
وزهور دماء
وضفائر ماء
وشُموس تلمع فى العينين الصافيتين

من أطلق مهر الصيف!!

١٩٦٥/٣/٢١

من ديوان «يتحدث الطمى»

وشم النهر على خرائط الجسد

«الوشم الرابع»

[هل أنتَ تحلم فالشمسُ طالعةً فى صراخ

المواويلِ والنهرُ مختبئٌ تحت سريركَ

والنومُ بوّابة تتدفّق منها مواريثُك الصامتة؟!]

رأيتكَ طالعاً،

ورأيتُ شمس الدمع طالعةً وراء

قميص شَعْرِكَ والظهيرةُ نخلةُ الوشم

المدلَّى فى فضاء الحلم والموالُ بوابات أرضك:

هذه تغْريبهُ الخيل الفتيِّة فى

مراغى الدهشة الخضراء، والبحرُ المراهقُ وردةٌ

فَتَحَتْ على زَبَدِ الغرائزِ جلوةَ العرس الخرافةِ،

هذه فرسٌ مجنّحةٌ تهمُّ إلى سرير الأفق،

هذى كائناتُ الماء جامحةُ اللّيونة تفتح

الجسرَ المرابط هودجاً لتساكُبِ

الأجساد فى الأجساد.

شمسُ الدمع طالعةٌ وفى فَوْدَيْكَ نافذةُ

العصافيرِ الأسيرة، صمتُك الدهريُّ خبزٌ فى انتظارِ
الآكلين، خطاكَ نقشٌ دائمُ التجْوال فى لحم الكتابة(١)
أنت تنتسب الهيولى زوجةً وتردُّها مكتوبةً فى
مصحف الأرض انبراحٍ، وأنت فى ظلمائها شبح
يضيءُ نوافر الجسد المكدس بالفصول، يضيء تحت
دوائر التدبينِ أجرانَ السنابل والمواويل المليئةِ
بالخيول الخضرِ، يفتحُ فى خشونة عشقها وطناً
ومملكةً لأبناء السبيل وأنتَ عرشُ النوم فى
أعضائها..

---

(١) كتابُك يطلع بين الأظافر واللحم عرساً من
الصرخات وطمياً من الغضب المنتشى بالمياه العميقة،
يطلع من رجفة الجرح تحت نصال المطر/
ويطلع: بَرْدَيُهُ زغب تتشقق من تحته صفحةُ الوجه
والنقشُ عصفورة الخوف، والله يسكن فى
وحشة البوص، وجهك فى نخلة النهر طلْع الكلام،
وطَبْلِّيَّةُ العائلة/ مقسّمة بين أيدى المماليك،
مكتوبةٌ فى حدود الأقاليم، فاقرأ:
كتابُك فى عنق العائلة
تَفَيأْهُ واقرأ تحاياك تحت رنين الفؤوس الصديئة،
تحت مصاهرة الخوف، تحت شموس الدم المقبلة
وكوّمْ ثريدكَ فى قصعة الشّعْرِ.. وانتظر القارئين..

لبستَكَ عاريةً وأنت جريت فى
أبهائها مترجّلاً وتركتَ فى راحاتها حَبَّ الطحين،
كتبتَ في ورق الزواج تميمةً ممهورة بالخبز والبركة.

كان سربُ اليمام الملونِ مندهشاً بالشمس والفراغِ المضىء،
كانت دوائره تتداخلُ وتكتبُ وردةً وسنبلة نازفةً من
هدوء الأفق، ثم تعلو وتكتب تاجا لملك المساحات المتدة..
تفاجئها أبسطةُ القمح وحصيرةُ الزروع والينابيع فتهبط
كالعناقيد المنفرطة.
ترى قميصك المفْتوقَ نافذةً على حجرة النوم
الأرضيةِ(٢) وطبقاً

---

(٢) على البابِ تزرع كرماً تعشش فيه الرياح
وتلتمُ زقزقةُ الطير، تحفر تحت سرير الرماد
المكوّمِ نهرا وتحلم:
هذا هو النهر ينسج أعشابه هودجاً
والعرائس يطلعن من خضرة الماء والشمس ترمى
دنانيرها
أنت تحلم:
مَحْرَمةُ العرس منقوشةٌ بيمام الدم
المتوهج، هذى هى الريح تعقد صرتها من =
= بعيد على النقع والخيل، تأتى إلى شاطئ النهر

من القمح وفتات الخبز ومخدةً من القش وشجرة..

فتختبئ فى قميصك المفتوق.

وأنت تكتم الضحك كيوم ولدت البقرةُ ويوم تَعَلَّمْتَ

تَحَسُّسَ المشيمةِ والبيضِ الدافئ وتعرفْتَ علَى وجه

أمك فى رائحة الخبز واللبن الرائب،

وأنت تكتم الضحك واللهفة والجزع كيوم انتظرتَ مهرةَ

عاشوراءَ ونسْجتَ من أصواتِ الريحِ وصريرِ الأبوابِ

وزواج الكائنات مشاهدَ للعدل والقيامة

حتى فاجأتْكَ الشمس فطيرةً حمراءَ على مائدة الليل

فخفتَ أن تصحو الحاكورةُ وتراك متلبساً بالحلم..

فكنتَ أول من يخرج لملاقاة العشبِ المفضّضِ

(بينكما الماء والشمس)
ما كدتَ تنتظر حتى رأيتَ أمير الخيول المغيرة
والموت يلبس شكّه ويخوّض فى النهر نحوك
هل أنت تحلم؟!
كان أمير الخيول المغيرة والموت مرتعشا
تتفكك أعضاؤه ويذويه الماء، يجرفه النهر.
هل أنت تحلم فالشمس طالعة فى صراخ المواويل
والنهر مختبئ يتكلم تحت سريرك واللوم بوابة
تتدفق منها موارثيك الصامتة؟!

بالندى ورائحة الطمى المبلول وترى ما تركتْ طيورُ
الفجر على التراب الرطب من آثار مخالبها المتشابكة،
خطوطاً خطوطاً كالشجر والأغصان، يدق قلبك
بعنف وتتلاحق أنفاسك بالخوف والغبطة والمطاردة:
هذه رسالةٌ لى، هذه الكتاباتُ على الأرض معقودةٌ
على سر الخليقة ومطويَّةٌ لى على وعْد خاص،
أتكشّف فيها أبجديةً متشابكةً ملفوفةً معقودةَ الأطراف
منقوطةً وغيرَ منقوطة،
هذا ألفٌ متكسرٌ وهذه ياءٌ كالمهرة الجامحة
هذه مملكةُ القراءة، وتاجى كلمةٌ تسبح
أغصانُها فى شجر الأبجدية الذى يبدأ ولاينتهى،
وأنتَ.. ياكتاب الأرض المنقوشة
من أين أبدأ وأين تنتهى الجملة الأولى؟!
آ.. را.. يا..
وقبل أن تلتقط خيط الجملة الأولى تصحو الخليقةُ
كلها، ويحرثُ الله أرضه الواسعةَ بأقدام
السعى المباركِ وأظلافِ الأنعام و..

سربُ اليمام يختبىء تحت قميصك المفتوق..

أرسم مجمرةً من الصلصال المحروق وأسميها
طاقيَّةِ الوبر، وأرسم خطوط الطول والعرض على
وطن بمساحة الجسد وأسميها سراويلَ الدَّمُّور
وكوفية الزغب المراهق وصُدَيْرِيَّةَ العرس المؤجل،
وأرسم دراهم الكحل والغبطة الفسفورية فى
زرائب الرياح والبوص وظل الشجر، وأُرسم
إبريق الجماعة وشاى الظهيرة وأقراط الخرز الملونة
وأكتب: هذه شجرةُ العائلة
وبركة الإقامة بين السماء والنهر.
وأنظر:
هذه الأرض المقيمة فى خطاك،
وهذه سجادة الظمأ المشَجَّرةُ المساحة بالشقوقِ.
وأنتَ للفيضان أبوابٌ مفتَّحةٌ برائحة المياه،
تفوح من إبطيك رائحةُ الدَّريسِ، بوجهكَ الشمسُ
ابتنتْ أكواخها،

قدماك جوْرَبَتِ الشقوقُ عليهما جلدَ الذبيحة..
هذه الأرضُ المقيمةُ فى خطاك ازّيّنَتْ بقناعها السرىّ:

(شمسٌ تفتح الساحات أجراناً مكدّسةً
وصيفٌ يكنس الكيزانَ،
شمسٌ للفساد ولاغتلام الكائنات
ولحظةٌ للموت والميلاد تفتح فى
تحاريق البراح شقوق شهوتها المقيمة بين
محراث الذكورة والمياهِ.)

وأنت: فى قدميك تمتلئ الشقوق بكل ما فى الأرض،
هل يمتد لحم الأرض من قدميك أفْدنَةً فأفدنةً؟!
أم الأسماء والوطن الملىء مكدسٌ بالدمع
تمنحه خطاك خريطةً فيقيم فى جلد الذبيحةِ
والشقوقُ تَفَرّعَتْ من حوله شجراً وأسْيِجَةً؟!

وأنت الآن تطلع من ثيابى، أنت تطلع من

رؤى غضبى، وتطلع حارساً ، والشمس مِقْلاعٌ،

وتحت خشونة الزُّعْبوطِ وشمُ غزالة بريةٍ..

جُمَّيزة الملكوت تسقط

أنت فى زمن اغتصاب الشعر فاغتصب الولايةَ

واغتصب لغةَ العراك ونازل العشقَ العصىَّ

وزاحم الميراثَ بالورثة/

قاف: آخرُ العشق وأولُ القتال،

آخر الغرق وأول القراءة.

تاء: طبقٌ للخبز وجَفْنَةٌ للدمع والدم،

آخر السُحت وأول التراب.

لام: صرخةٌ معقوفةٌ وجسدُ امرأةٍ يتَقَبَّض

بالشهوة ورشاقة الطيران فى الريح

وامتلاء الحمل وتحدّى الولادة،

شصٌ عالقٌ فى قلب موجة دوّارة

(هل أنتَ الصيدُ أم الصيادُ أم أنت صانعُ
المسافةِ بين أقصى الفريسة وأقصى القصاصْ؟!)
كل أرض ألزمناها طائرها بين شمس الدمع وخشونة
الأيدى ودهشة الطفولة الوارثة
فاقرأ كتابك...
هذه الأرض شهادة تتوقَّد بالزهر والعشب والسنابل
وتتسع كالوليمة وتعقد مناديل الخبز على حوار
القاتل والقتيل
طويت الصحف وجفتِ الأقلامْ..

١٩٧٤/٥/٥

من ديوان «والدهر يلبس الأقنعة»

١٩٦٨

القطاراتُ لم تنقطعْ..

غبشُ الفجرِ لوزةُ قطنٍ مبدَّدةٌ نفضتْها

الرياحُ على قبة النخل والشجرِ النائم، انفتحتْ

خَوْخَةُ الباب..

صوتُ الأمومةِ من خشب السَّنْطِ آخرُ

زادٍ ومفتتحٌ للبلاد الأليفة، آخرُ ما أعشب

الوجه من زغب الشمس، أولُ لافتة أتهجى

كتابتَهَا غريبةً فيِ اتساع الشوارع بالخلق..

والفجرُ يفتح أبوابه فى زجاج النوافذ،
شمسٌ بكعْكِ السَّميط المحَّمصِ تطلع منقوشةً
بالجدائل والسمسم
(انخلعتْ فى الجلابيب أحصنةُ الطين،
لُبُّ النوى المُرِ، مسبحةُ الرامخ الأملس)
انفسحتْ بيننا الأرض يارهج الحرب بين القبائل
(هل أنتم الآن بين الحجاز وتونس، هل
صدئت فى دروع زناتة أو فى سيوف
الهلالَّية الشمسُ، أم تمسحُ الكتبُ المستجدةُ
صوتَ الربابة من طينة الذاكرة؟!)
وخبز القرى فى الحقائب مرتعشٌ بالقرابة والملحِ
(عينٌ زجاجيةٌ تتفحَّصُ جيماً معطَّشةً،
وطنٌ ينتهى من كلام الختان الصبىَّ،
ونهرٌ أفتِّشُ عنه خرائطَ ليستْ مبلّلةً،
ورقٌ تتكومُ فيه البلادُ الفسيحةُ،
والماءُ يسكنُ بئرَ التذكّرِ، والشمسُ
مرسومةٌ بالرصاص.)

القطاراتُ لم تنقطع..

والمسافات بين الوجوه وبين المرايا

مهشَّمةٌ، ها هو الوطن المستديرُ على جسد الأرغفة

تكسَّر فوق الموائد، هذى صحافُ الكوابيس:

أطعمةُ الخوف دافئةٌ، والسلالُ المليئةُ

تفتح صرتَّهَا فى رصيف المحطَّاتِ، ينتشرُ الوحشُ،

يلبسُ أقنعةَ الأهلِ، يركضُ فى فلوات الوجوهِ الأليفةْ

وحوشاً وحوشاً..

فأصرخُ..

يستيقظ الضحك، السوق تمتدُّ أروقةً

للمساومة، الأرض تنشقُّ أرضين،

والشعبُ شعبين، أحصنةُ الماء تصهلُ فى الذاكرة.

هو الماءُ..

جمرةُ عشقٍ متُوَّجةٌ فى برارى البداوة،

محفورةٌ فى بكاء الطلولِ ومكتوبةٌ فى سيوفِ القبائلِ -

والشِّعرِ مكتوبةٌ فى طقوس الدم الجاهلية.

هو الماء جمرةُ عشقٍ متوجةٌ والرعيَّةُ من

أصدقائى امرؤ القيس، علقمةُ الفحلُ، والنفّرىُّ
الغريبُ المشرّدُ بين قرى مصر والبصرة،
السُّهْرَوَرْدِىُّ زوج ابنتى وأنا طالب الثأر من
قاتليه وممن يُعيدون تطويقَهُ بالحصار المعاصرِ والأسئلة
أحرّرُهُ من سجونِ الخليفةِ كى يفتحَ الأسئلة
مناديل للخبز، بوابةً لاغتصاب الميادين من حاكميها،
فهل لغةٌ تتوقّدُ فيها مصاهرة العشق والموت
هل قمرٌ يتكسّر مسبحةً
هل صلاةٌ تدمْدِمُ فى شجر الربّ، هل
أصدقائى يقيمون فى الزّلْزلة
ويلقون أقوالهم بُسُطاً فى الميادينِ..
هذى أباريقُهم مطرٌ من صراخ النبوّة،
هذى الجموعُ استحمت بشمس المجاعةِ..
هل أصدقائى يقيمون بالجامعة؟
صلاةَ القبائل للغيم والنهرُ ملءُ اليدين
وهل لغةٌ تُشعِلُ النار فى حطب الشّعر..
هذا هو النفرىُّ المشرّد فى لغة

الخطباء يولول فى وحشة السحر يصرخ فى

صحراء الكلام ويكسر قُفْلَ الينابيع يدخل

فى مدن الحاكمين يقيم المتاريس ينشىء كومْيونَةً من

قُشَعْرِيرَةَ الرفض والأسئلة

(وأوقفنى.. عن يمينى خرابٌ يُسيَّجُه النومُ

والأرضُ قد لبستْ زخرف (الأمن)

وازَّيَنَتْ، عن شمالى خطى النهر كانت

تلاحقنى، كان يَفْرطُ فى خطواتى الشباكَ

المليئةَ بالموج، يكشف لى سمك الحلم والنار

فى الغيمة المثقلة

فهل غرقٌ يستعيد الينابيعَ

هل غرقٌ تتفتحُ فيه الهتافاتُ عن جسد الحلم،

هل غرقٌ تتقشرٌ من نحته المقصلة

فيهوى الكلامْ المهجّنُ،

هل غرقٌ يتلبّس كالمسّ والهذيان المرابط فى

ساحةِ الحلم والخلقِ،

والحلم مركبةُ الحضرةِ الشاملة؟!!

وهذا هو السهروردى يدخل ليلَ الميادينِ
والأرضُ مخبوءةٌ تحت جبّتِهِ وهو يبصر طيرَ
الجلالة منتشراً تتقمصُه الكائناتُ الأسيرةُ
محتشدا فى قلوع المراكب والنهرُ يمشى
مظاهرةً فمظاهرةً..

والبلاد البعيدةُ ترسل ملءَ السلال فطائرها
الدمويّةَ زوّادةً للجموع المقيمة خلف المتاريس
ترسل موّالها المتجذّر فى الدمع والسهروردىُّ والنفرىُّ
يخطّان فوق الحوائطِ والصحفِ الجامعيةِ طيرَ الكلام
المفاجئ بالشمس والريح،
والكحلُ مشتعلٌ فى عيون الصبايا بوحشية الحب
والثورة المقبلة

* لو أنني أطلعتُ من لغتي نخلة لخطفتُ اللغاتِ
المهينةَ خطفَ المناجلِ حرمتُ المعارفَ حرمَ
الرمال عصفتُ عليها الرياحَ العواصفَ

«مراسلة من النفرى»

* الواقفون بي واقفون في كل موقفٍ

خارجونَ عن كل موقفٍ.. وأنت مَعنى الكونِ كله.

«كلمة سر الليل للنفرى»

* قد جاء وقتي وآن لي أن أكشف عن وجهي وأظهِر سُبُحاتي ويتصل نوري بالأفنية وما وراءها وتطلع على العيون والقلوبُ وترى أوليائي يحكمون، فارفع لهم العروشَ ويرسلون النار فلا ترجع وأعمُرُ بيوتي الخراب وتتزين بالزينة الحق، وترى قسطي كيف ينفي ماسواهُ، وأجمع الناسَ على اليُسر فلا يفترقون ولا يذلون.

«رسالة تحريض من النفرى»

* أنا مُليِّلُ الليل ومنَهِّرُ النهار، أقلّ الليلُ
وطلع وجه السحَرِ وقام الفجرُ على الساق
أربط المنطقة فينعقدُ كلُ شئ، وأبسط حركي
ولامتي فتستيقظ الأرضُ، وأبسطُ البرقُعَ
ولا أكشفه.

«دعوة النفرى للمنازلة»

* العلم المستقر هو الجهل المستقر.

«دعوى النفرى لقراءة ما لم يُكتبْ»

* اهدمُوا واهدموا واهدموا

نَفَخَ الله فى جسدِ الشعبِ لما استوى فوق

عرشِ المجاعات،

ينفخ فيه السنابلَ والغَضَبَ المتأجّجَ،

نحن له أنبياءٌ، مصاحفنا تَتَنزّل من شهوة الماءِ

اهدموا واهدموا

فالشواديفُ شاهدةٌ والسواقى رسائلُ مطويّةٌ

حملتها إلينا المواويلُ من قريةِ الأهلِ،

خاتمها وردةٌ للصراخِ..

اهدموا واهدموا..

«نشيد الخروج»

* هذه قبة الجامعة

هبطَ الليلُ.. فالتفَّ حراسُها للهجوم المباغتِ

والنومُ تطلع أشجارُه، انطفأ الكحلُ، أرْخَى

الرخامُ يديه على ركبة التعب المتألِّقِ،

والنومُ ينثر أعشاشه بالهواجس والخوفِ..

هل لانَتِ الأرضُ كالفُرُشِ الأسرّةِ

فالتحمَ الجسدُ الآدمى بصمتِ الحجارة

والكتبِ الآفلة

ودوّى الرصاصُ البعيدُ..

هل استيقظ الماءُ فى الذاكرة

فهذا هو النهر يترك فَرْشَتَه ويمدّ خُطاهُ

وجوهاً وجوهاً

يُشَجّرُ ليلَ الميادين بالرقصِ والأذرعة

ويفتحُ لحم لشوارعِ

بيتُ الشوارعِ يفتحُ نافذةً للأمومة،

فى ظلمةِ الشرفات تضيئ الأبوّةُ بالخبز والماء،

تحت الضفائر يبرق وَهْجُ القرابة، ينعقد

الخوفُ والياسمين المفضّضُ بالدفء زغرودةً

للزواج الجماعىّ أسْوِرَةً للمواعيدِ..

دوى الرصاص البعيدُ القريبْ

وأقبل سيلُ الدروع الصقيلة

يسدّ المداخلَ، وانْهمر المطرُ المتوحشُ قعقعةً
ونجوماً نحاسيّةً.
ـ: كل هذا السلاح المرابط من أجلهم؟!
ـ قالت امرأةٌ ـ
وطنٌ يتقلّد مجزرةً
أم يخافون شعباً تربّى على الخوفِ؟!
ـ :أسلحةٌ مشتراةٌ بما كثفتْه المجاعاتُ من
صدأٍ فوق أسنانهم ثم تُشْرَعُ صفاً فصفاً
فتصرخ تحت فتوق الثياب القديمة شيخوخةٌ باكرة؟!
ـ تقول الصّبيّةُ ـ
(لكنها قبل أن تُكملَ القول يخنقُها الدمعُ)
دوّى الرصاص القريبْ
هو الموت.. يفتح تحت عباءته سكةً لالتحام
البنادق باللحمِ
دوّى الرصاص المفاجئُ
قَعْقَعَتِ العرباتُ المدرّعةُ، انغرستْ فى
الرصيف الأكفُّ، فتحنا الخطى سكةً يهربُ النهرُ منها

ويحمل جرحاهُ فى دمهم للبيوت القريبةِ

(هل غسل النهر أثوابه من

خيوط الدم المتخثّر، هل زال حبرُ المطابع

من فوق كفيْهِ؟!)

هذا هو الفجر يكنس صمت الميادين

والشمسُ تلمع فوق الدروع الصقيلة.

«سيناريو تسجيلى»

شهادة:

البلادُ البعيدة أوحشَهَا الحلمُ والرقصُ

فالشمسُ مجْدورةُ الوجه، تصفرُّ تحت

المِلاطِ المقشّرِ، تسودُّ فى جُدَرِ الطين،

ينفتحُ الجرحُ فى جثة الأمكنة

فماً بارداً كنعاس الغريق على العشب،

قَرَفَصَت النصُبُ الحجريّةُ، هذى سماءُ الميادين

مثقوبةٌ..

ليس منتظماً فوق طبل البراح المشاع سوى

خطوةِ الدركيِّ وصوتِ الحذاء الثقيل على حَجَرِ السمع،
فى ورق الذاكرة
يقرفص فى دمه وطنٌ نقشتْه الشطوطُ البعيدةُ
بالسَّلقِ والشمسُ محمرَّةٌ فى مياه الأصيلِ،
القطيفةُ فى حبق الماء مسكونةٌ بالفراش الملونْ،
سجادةٌ من نجيلِ المجازات، رائحةٌ من وضوء
الجباهِ السخيّة فوق حصير الجوْامع، رائحة الخبز
طالعةٌ من مواقدنا العائلية .. فى ورق الذاكرةْ
يقرفص فى دمه وطنٌ..

وحدها .. قامةٌ من رخامٍ

الليونة والدهشة الشبقيةِ،
والقُرْطُ مركبةٌ للنداءات والوحشةِ المزهرة
وَقَفتْ تتمسَّحُ فى ظلها تحت ضوء الفوانيس،
ترمى رمادَ سجائرها فى الرياح، تُقَزْقِزُ لبَّ المواعيد
والتعب المتدثِّر بالكحل والزَّغبِ المتخفىّ ودفءِ الفراء
(خطوةٌ .. خطوتان..

ومن بين وجهيْهما شعلةٌ ودخانُ

السجائر كالفرشة المستْضاءةِ،

عاد إلى مُستراح الحذاء الثقيل على

حجر السمع.)

«ملحوظة: النهاية مفتوحة»

نداءاتٌ على الجدران لم تقشّرْها الأظافرُ

ولم يغسلها المطر

١ـ اختبئ يا قطاراً يهرول فى الحلم،

صوتك يخلع ريشَ النّشاز الملون، يسقط بين الصدى والصدى، وتصنفْره شفرات الأظافرِ

يدخل أوركسترا الأسْرِ.

فلتختبئْ يا قطاراً يهرول فى الحلم فالأرضُ مكشوفةٌ والمحطاتُ مفتوحةٌ تحت ضوء السفرْ

اختبئْ فالإقامة مأهولةٌ بوحوش القرابةِ

والألفةِ الناعمةْ

٢ـ جسد للعشيرة: أعضاؤه انْفَرَطَتْ
كالعناقيد فى ورق الملصقاتِ ـ الأفيشات ـ وهْجِ
النيون المشاكسِ.
حطَّ الظلامْ:
فهل يَنْفِرُ النهد تحت الأكفَ ويلتمُ رهْطُ العناق
الصريح وهل يفتح الليل مَضْيَفَةً للتخاصرِ
والرقصِ، هل تُفلتُ الشهقاتُ المقيمة فى اللون، هلْ؟!
٣ ـ تَنَفَّسَتْ حقائبُ الوطن، ياللّه،
هل يملك كلَّ هذه الملابس الداخلية؟!
وبعثرها فى الريح، فهل كل هذه الألوان من
شمس واحدة؟!
وغَربت الشمسُ
فكلُ طريقٍ صباحٌ وكل صباحٍ طريقْ.

٤ ـ العصافير تنسج أعشاشَها فى
حديد الشبابيك والأرْفُفِ الخشبية فى المكتبات
وفى الحافلات المليئة بالزَّحمة الضاحكة

والعصافيرُ تنسج أعشاشها تحت ليلٍ من
الشَّعَر المستعارِ وفى خُوَذِ الشهداء
وأحذية الهاربين.

٥ ـ أسرعوا أسرعوا.. فالبلادُ القديمة
ركضت خلفكم،
واكتبوا واكبتوا.. فالبلاد القديمة
قطعتْ شجر الأبجدية.

٦ ـ مَطْلَعٌ جاهلىٌ يجئْ
تطلع الشمس فى الذاكرة
تحت إيقاعه يَسْتَضىءْ
وطنٌ للخراب الطلولىِّ
نهرٌ تجرّرُه الصرخةُ الفائرة

٧ـ صخَبٌ، وبلادٌ تجلجل فى حجر السمع،
والرعدُ يزرع أعضاءه..
انْتظروا.. تصهل الخيل فى الأروقَةْ

حلم:

هذه امرأةٌ تتغطّى بأوسمة العُرْى، قشٌ

تطاولَ من إبطيْها، وحلفاءُ شمسٍ بهيجةْ

ضربتْ قُبّةً من خشونة أوراقها فوق

شمسِ الزّبيب المقيمةِ فى الفخذين الشهيين

هل هذه امرأةُ المرمر امرأةُ الصولجان؟

طيورُ الحجارة ترصفُ بيض السطوع الملّون،

ينقّفه البردُ والدفءُ، يفتح فيه الدهاليز:

هذى المدينةُ فى الأفق مملكةٌ والرّعيّةُ

يضربُها طائفُ الصرخةِ الهالعة

-: أتعرفنى؟!

-: ربما:

فوق عينيكَ جرحٌ يذكّرنى بمرايا الطفولة

والطيران المفاجئ بين الذراعين والسقف.

-: ألمحُ تحت ثيابك سيفاً، فهل طالبٌ أنتَ

للثأر أم خارجٌ تستردُّ البداهةَ والصيدَ فى

غابة الدهشة الملكية؟

-: أطلبُ بيتاً وعائلةً أستردُّ على خبزها شرفَ الاسْم،

أطلب بئرَ القبيلة.

-: هذى المدينةُ موبوءةٌ.. يترجّل وحشٌ جميلُ

التقاطيع ما بين همهمة الفقهاء ودفء الفراش

المبلّل بالنومِ والموتِ، ما بين وشوشَة القصر بالمخمل

المستريبِ وعرَافة الشهوة الجسديّة والانتحارِ البطيءْ.

أنا ملكٌ، والمدينةُ تحتى تلُفُّ عصائبَها، بين تاجي

وعرشى تَسَاقَطُ الشمسُ داميةً، يخلق الليلُ

تحت هشاشتِه حيوانَ الوساوسِ والرعبِ،

ألويةً للخفافيش، عرافةُ الصرخة المستجيرةِ

تتبعنى للخلاءْ

تؤامرُنى وتقايضُنى؟

- :كيف؟

- : آخذُ سيفكَ، خذْ صولجانى، وقلْ للجماهير:

قابلنى الوحشُ يأكل صاحبكم فقطعت جناحيه،

مزقته قطعا قطعا.. فاختفى..

سوف تلبس تاجى وتشهدُ مملكةً تتفصدُ أنهارُها

تحت رجليك، ترقدُ فوق سريرى، وتفتح زوجى

خزائنها.. وأنا أتخفَّى، وتأخذنى فى عبيدكَ..

ـ : تعرفنى ؟!

ـ : ربما..

بين نهديكِ نهرٌ يذكرنى بالرحيل المفاجئ فى

الفجر، أذكر بحراً وصحراء، فى ركبتيك ارتعادٌ يذكرنى

بالأراجيح والنوم، أذكرُ شمساً مُضبَّبَة فى

خزائن فخذين..

عيناى فتشتا عن بلاد السراويلِ والدفء..

ها وطن يتيقَّظُ فى الذاكرة

فمُدى الموائدَ واستترى والبسى تحت عينىَّ أو سمةَ

العرى، قشُّ الخليقة ممتلئٌ بالطيور الغريبةِ

والوحشِ، أروقةُ القصر واسعةٌ

(كنتُ أطلبُ بيتاً وعائلةً أستردُّ على

خبزها شرف الاسم..

ها أنت عاريةٌ تفتحين الصناديق

تعطينني من خزائن فخذيكِ مملكةً
تتطاول فيها السلالاتُ..
والصمتُ عائلةٌ تتماسك في كل ريحْ.)

ـ : أتعرفني؟
ـ : أنتِ.. هل تعرفين انسلاخ الظلام من البحر..
هل تعرفين انتقامي؟
خزائنكِ الخُضْرُ مفتوحةٌ بين كفَّيَّ..
هل تعرفينَ انتقامي؟

مملكة أخرى

واسعةٌ خُطْوَةُ الشمسِ، أوسَعُ منها غيومُ
القصائد في القلب، أوسعُ منها يدٌ وفمٌ يرفضان
رغيفَ المماليكِ..
والأرضُ واسعةٌ يتناسل فوق خرائطها عنكبوتُ
الأقاليم ينْفَرطُ الملكوتُ الملوّنُ أسيجَةً وبلاداً..
وأوسعُ منها دمي ووضوئي المباغتُ في رجفة الجرح،
أوسع منها حصيرةُ نومي على قبة الحلم..
مملكتي لا تزول إلى آخر الدهر،
مملكتي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ

ومملكتى شارعٌ ورصيفان تطلع بينهما
خطوة الرقص جُمَّيْزةً للغداء الجماعىّ
نكتبُ فوق الأكفّ مواعيدَنا، نتحسسُ
قارورةَ اللون. والأرضُ تضحك ملءَ الفروع،
الأباريقُ تهوى مكسَّرةً فى كتاب القوانين،
نكتبُ ناراً مُجنَّحةً..
كلما غسلَ الموتُ أوجُهَنا اقترب الفجرُ..
هذا وضوءُ الكتابة،
نصْطَفُّ فى حضرة الحلمِ..
نكتب مملكةً للشوارع..
هذى الشوارعُ مملكةٌ يتبطَّنُها الحلمُ
والرقصُ،
تلْتَمُّ أصواتُها جسداً للقصائدِ
أزمنةً للجنون المبرْقشِ بالماءِ والشمس..

١٩٧٤/٧/٤

من ديوان «والنهر يلبس الأقنعة»

قراءة

تلبسُ الشمسُ قميصَ الدَّمِ،

في ركبتها جرح بعرض الريح،

والأفقُ ينابيعُ دمٍ مفتوحةٌ للطير والنخل..

سلامٌ هي حتى مشرقِ النوم..

سِلامٍ !

ونساءُ النهر يَطْلُعْنَ:

خلاخيلٌ من العشبِ

استداراتٌ من الفضة والطميِ،

اشتهاءٌ بللته رغوةُ الماء.
تصايَحْن على الطير، وبالشيلان يمسحن زجاجَ الأفْقِ،
يبكين بكاءً طازجَ الدفــء.
سلامٌ هى حتى مشرق النوم..
سلامْ/

ضمّت الحقولُ ركبتيْها ونامتَ الثعابينُ
سلامٌ ظلاميٌ يتكوّم قشاً ناعماً وزغبا
والثيران أغفتْ وافقةً تتكسر أنجمُ الليل فى
حدقاتها الفسفوريّةِ الغا ئبة
سلامٌ قناع من ليلٍ رحيم
نام النصفُ الهالكُ ولم يستيقظ النصفُ الحى
وخلّت الأرضُ من كل دابة
فإذا قُضيتْ صلاةُ العَتمة وأقبلتْ ملائكةُ الحلمِ
وأشرَق النومُ بنور شمسه الخضراءِ
وآيته المبصرة
فبرحمةٍ منه خلعتُ أعضاءَ النهار وفتحتُ فى

النصف الهالك نافذةً والتفَتُ بالنصف الحيْ
وقامتْ قيامهُ الرؤية:
تَرَجَلّتُ عن رسوم الشراشف ورائحة المخدات
فهل تركت الأغطيةُ على وجهى رسومَها الشجريّةَ البارزة؟
وجهى ورقٌ يتطاير وثمارٌ يساقطْن وأفرعٌ تنمو..
مهرةٌ تطلع من بيت أبى:
تُطوى المسافاتُ لها، الفضةُ والبرقُ على
حافرها ضوآً غرناطة والأرض وراءَ النهر،
والزئبقُ والكحلُ بعينيها مرايا اشتعلتْ
بالطلل الواسع،
تعلو قامتى فى جسد الحلم ، أضئُ،
الشجرُ الطالع فى وجِهى معقودٌ،
ورمح طازجُ الخضرة مكتوبٌ على وجهى
ينابيع وأقواساً من الماء الهلالىّ.
وتعلو قامتيِ فى جسد الحلمِ:
سهيلٌ وردةٌ خافقةٌ فيِ عُرْوَةِ القلب،
ينابيعُ دم معتمةٌ تصحو،

خيولٌ طلعتْ من «جزء عمّ»
اتسعتْ دائرةُ الأرض..
سلامٌ هى حتى مطلع الفجر.. سلام/
ركبتى مقصورةٌ فى طرف الأفق ووجهى ازْدَحَمَتْ
فيه الكتاباتُ البروقُ الورقُ الأخضرُ والماءُ
«الحروفُ/ أمةٌ من الأمم، مخاطَبون ومكلّفون»
الطيورُ انفجرتْ فى قُبّة الريح كما تنفجرُ البئرُ،
تذكّرْتُ..
هو الأفقُ الأريكةَ/
جسدى مقصورةٌ، أملكُ مُلكاً لم يكنْ لى
ليس للغيرِ
تذكرتُ ومن تحتى نهرُ الصُوَرِ الحيّة يجرى
والينابيعُ تواشجْن كما أقضى..
تذكرت فجاءت كرةُ الأرض وجاءتنى
السمواتُ وأبدلْن ثياباً بثياب.
المزْجُ بين خلائق الذاكرة وزواجُ ما ليس ذكراً
بالأنثى وما ليس أنثى بالذكر

وفرحُ القوى الأرضيّة وَهَبَنى قوةَ الاستحضارِ

بمددٍ من صور الذاكرة المهشمة

فاستحضرتُ من الأطعمة والصور والسماعِ

الطيِّبِ على ما أشتهي

وطال الوقوفُ فى مقام «كن»

وامتلأ الفرحُ بالأسئلة الغضّة

وتهدّلَ شجرُ الوجه بالهواجس الطازجة

وبراعم الحيْرَةِ المنْتَبِهَةَ

فعرفتُ أنيِ على المعراج أتمشى فى مقصورة

اليقين الأوحد

واتسعتْ دائرةُ الأرض،

السموات سراويلٌ يَتَفَتَّقْنَ عن خاصرةِ النهر الحى

ناقذةٌ تحت سراويل البحر مفتوحةٌ،

والإشراقيون الهرامسة والعُرفاءُ يقيمون

وليمة الجدل النورىّ،

السُّهْرَوَرْدِىُّ يتنفَّسُ ملءَ الفضاءِ ويقسّمُ الخبزَ

والسمكَ النيلىَّ المفضَّضَ ويأكل ملْءَ

الفيض الذي لاينقطع

الهرامسةُ ينسجون بُرْدَةَ السماع والطرب

ويفرشونها للقبيلة النبيلةِ والوحشِ

والطيرِ مسْتراحاً وكنفاً وتوطئةً

لتعارُفِ الخلق ومصاهرة الخلائق

مثنى وثلاث ورباع وإلى آخر

ماتعيه الذاكرةُ من الأعداد.

نساءُ النهر يشكفْنَ عن الساق النحاسيةِ

والطميِ وعشبِ الخليقة الطالعةِ من كل نوم.

سلامٌ هى حتى مطلع الفجرِ.. سلامْ/

مهرةٌ تصلُ فى بيت أبى،

بيتُ أبى مرتحلٌ فى جسد الحلمِ،

الفراتان كتابٌ من دمٍ يصعد والنيلُ كتاب

وسراويلُ دمٍ منتشرٍ يخلعها البحرُ

فتلبسُ الصحراوات وتزّيّن الأرضُ الواسعةُ

وشظايا الخرائب ببهاء الصاعقة وخضرة النار

والشمسُ تولج أطرافَ الليل فيِ قفّازات الأرجوان

وجوارب الذهب المسبوكِ وغيرِ المسبوك

صاعدهٌ هى ومليئة

هابطٌ هو إلى همهمة الخشاش وتلاصُقِ الدُّويبْاَتِ

وزواحفِ السَعى.

ضاقت الخطوةُ..

فى مرْقَعَةِ النصفِ النهارىِّ التفقْتُ،

انتشرتْ رائحةُ النوم الظلامىِ

وقَاءَتْ فُرشُ الصوف، ارتمتْ ألْحِفَةُ

القطن المنداّةُ..

سلامٌ عنكبوتٌ من دمٍ خثَّره أنَّ

التقاطيعَ تشابهْنَ..

سلامْ/

جسدٌ يهجره الماءُ وماءٌ هجرتْه الذاكرة..

١٩٧٥

من ديوان «أنت واحدها وهى أعضاؤك انتثرت»

موتٌ ما..

لوقتٍ ما..

أَعلَنْتُ ميثاقَ الإقامةِ بالرحيل

وتركتُ وقْعَ خطايَ في سرِّ الشجر

واسَّاقطتْ ما بين عيني والبلادِ

زمرداتٌ من حجر

فعرفتُ طعمَ الخبز مرتجفاً، وقلتُ،

وقال لي الموتى، أطلتُ ، استألفوني

بالتذكر، وارتمى عنى الرداءُ،

الأرضُ روتّنى،

وبلّت الرمالُ السافياتُ بريقَ عينىَّ

المحدقتين فى حَجَرِ الظلامْ

كفُّ تراخت، والأصابعُ تفتح الينبوعَ،

تنْبجسُ السْحالى والثعابينُ،

الضَّبابُ تجيش من حولى أماناً ناعماً..

لم يبق لى غيرُ الكلامْ

معها وجذرِ النخل والطلعِ المكتَّمِ فى

مساريه العميقةِ،

ليس لى إلاسويعاتٌ من النوم السخىِّ

أمرُّ فيه على البلاد وأسْتعيدُ الشمس

والرعىَ الطليقَ،

أكلّمُ الموتى وأسمع ماتُزَمْزِمُه العظامْ

وأشدُّ فيهم ما عقدتُ من العُرَى..

فى حضرة الليل استفاضتْ وقفةُ الإشهادِ،

فى فصل الخطابِ استوْدَعَتْنى سرَّها الروّاغَ

واستودعتُها نومي سويعاتٍ،

أقومُ، أكلم الموتى

وأنظر ما تصاهرَ من دمٍ تتقلّب الأنسابُ

فيه بصبوةِ العشقَ المبرِّحِ،

أنظر الأكفانَ والعظم والرميمَ توشّجتْ

منه القبيلةُ

أشهد الأمشاجَ أعراقاً وألويةً تذاوَبُ

والصنوجُ تدق بالصدأ الكظيمْ.

هذا زواجُ الأرض بالموتى:

مسيلُ اللحمِ عن أغصانِ هيكله،

انفراطُ أجنّةٍ معجونةِ الأسماء بالزّرَدِ المفتّتِ

والهشيمِ الهشِّ من صلْب الدروعِ

سنابكِ الخيل الصديئةِ.

قلتُ أمشي فيِ عروق الأرض أشهدُ ساحةَ

البدْءِ المجلْجلِ والختامْ

كيف استتمتْ نارَها ورمادَها في

الخطوة الأولى، وكيف انشقَّ من مُهْلِ الغَمامْ

برقٌ من الدم فاستضاءتْ تحته

الأطلالُ والأجداثُ،

لايومُ النشورْ

يأتي ، ولايدْوِي على الوديان صُورْ

فاستغرقتْني بالهواجس هَجْعة القيلولةِ السوداء:

يا أمشاجَ ما في الأرض..

لامُهلُ الغمامْ

يَنْقَضُّ بالسُّقْيا،

ولامحراثُه الناريُّ يفتح في شقوقِ

الرَّغْوِ منك أهلةَ التكوين أو ماءَ السلالاتِ.

البلاغُ استَغْلَقتْ نيرانُه؟!

واسترْجَعَتْ قَدْحَ المغيراتِ الصخورْ؟!

هذا رغيفُ العهد معقوداً على صَعْبِ النواصي؟!

أم هو الموتُ استفاضتْ رغْوَةُ

الإشهادِ فيه بالكلامْ؟!

الشمسُ فى حِجْرِ الظلام

مخبوءةُ النيران تحت هياكل الأنْصاب والأزْلامِ،

هل ذهبُ العبيد مكدّسٌ فيها؟!

وهل ومَضُ اللآلىء - من عيون الميتين -

من مائها المسجونِ؟!

أم وجهُ البلاد زمرادتٌ من حجر

يسقطن من عينىّ ما بين الخلقيةِ والكلامْ؟!

هذى سويعاتٌ من النوم السخىّ:

أُذيبُ أعضائى بصمت جلالها المكتوبِ،

أقرأ ما تجلّى من دمىِ فىِ سرِّها الروّاغ بين

علّوهِ فى المدّ أنساباً وفيضاً من سلالات أنا

بدءُ البداية فى أُبوّتِها،

وبين الوعْد بالميقات فى أمشاج ما فى الأرضِ.

هذىِ من نَواشى ظلمِةَ الدّهرِ.

الكلاَمْ

قولٌ ثقيلُ الوطْءِ، ساعاتٌ من النوم البطىءِ

يمر بالقيلولة السوداء..

أسكُنه وأنظرُ:

بين عينىَّ السمواتُ العُلى مسكوبةٌ،

ما بين كفَّىَّ الظلامُ حجارةٌ تتقادَحُ الأوقاتُ فيها،

الأرضُ روَّتنى وبلّلت الرمالُ الساقياتُ بريق

عينىَّ المحدقتين فى شمس التذكرِ،

أسمعِ الموتى، أكلمهم،

وأخرج فى سهوب النوم:

عرشى قائم الأوتَادِ فِي صمت البوادىِ والخليقة.

شمسُ التذكر فى سُهوبِ النوم داميةُ النزيف

والريحُ تعلو فى قباب الدهرِ والأعماقِ

سافيةً فسافيةً

وغيمٌ ينطوى من بعد غيم،

يمرُقُ البرقُ الأليفْ

لاشئ إلا خيطُ أُكفانى فأُسْكُهُ به

ليطير فى الريح الطليقة..

١٩٨٠/٦/١٥

امرأة تلبس الأخضر دائماً
ورجل يلبس الأخضر أحياناً

لعشاقها ملكوتٌ من اللون:

لونٌ هو الخضرةُ الغامضة

لأولِ حلفٍ مع الله إذ هم يقيمون فيِ

هاجس الطين - فيِ حمأ يتملكُ عمقَ الفضاء

وماءَ الينابيع والأرضَ يومئذٍ من رعيةِ

أحلامه وانتظار المليءِ بأسمائه،

وهو لونٌ من الخضرة الغامضة.

يقولُ: ابتدأنا،

وحولهما من خطوط المحاريث فيِ الأرض،

والطمىُ شهوةُ ماءٍ مفتّتهٌ، فيِ سخونته الرحميةِ

ينغلُ خلقٌ من الدبقِ الحىِّ،

تلتفُّ همهمةٌ من خشاشٍ رميمٍ تدبُّ به

الروحُ، والغُلمةُ المستفيضةُ بين اليرابيعِ

والخنفسُ المتفحّمِ، والعلقِ الرّطبِ،

يعلو صريرُ الجنادبِ،

كانا ضجيعىْ دمٍ يتنزّزُ من أول

الدهر أحوالهَ،

تتشظى سنابلهُ، والسماءُ تخللُ نسجَ العساليجِ،

تهوى نقوشاً مطرزةً.

وتقول: احتملْ من ملائى نصيبكَ،

وليفتح الله بالعشق والخضرة الغامضة

هى الأحوالُ ومقاماتُ العذابِ، محنةٌ يغلى

دمُ القلب بها وتحترق اليد،

فالجراحاتُ يتفتحن قطوفاً دانيةً من مواهب النعمة

وأُعطياتِ الإرادة الطيبةِ والانتظار السمْح الرحيم

والموتُ صديقٌ تتقادمُ بيني وبينه المواعيدُ وتشتدُّ

وشيجةُ الملاعبة وخيوطُ المرح المشاكسِ

ومغاضباتُ الضحك

يرسل المطر تواقيعَ على زجاج النافذة كي أنتبهِ

أبتسمُ.. فإني أعرف خطوته في ريح الليلَ

وفحمة الظلمة،

وأتوقعُه زائراً كلما امتلأتْ قطوفُ المحنة بالعطايا

وثقُلَ على القلب الفرح

أفتح النافذة ليحلَّ ضيفَ سهرٍ على طعامٍ وشرابٍ

كلما نقصا فاضا

يجلسُ قبالتي وأنادمه بذكرِ حصاده ومعنى الشمس والنهر

«كلما مات منا سيدٌ قامَ سيدٌ»

أضدادٌ في اللغة أمْ لغةٌ في الأضداد!

وأنت واهبُ المعنى الجارفِ ومفتقُ الأكمام

تشارك في كل حضور

وتقتسم الصمتَ والكلامَ على كل شفة
تقبض بيدك على زمام الفوضى فتتشكّل القوالبُ
وتفتح أبوابَ القوالب فتفيض الحياة
لك مزدهرُ الدَّوام ومجدُ الينابيع
ولى مجدُ الظل وبطولةُ البحث عن زاوية السقوط
ولحظة الزوّال.
يقلّبنى بين كفيك مارجُ عشقٍ وصبوةُ نارُ تزمزمُ،
ينفرط اسمى شظايا حلىً مبعثرةً تتنمنمُ من
ذهبٍ وشموسٍ مكسّرةٍ تتهاوى فتمسكها فى
سلاسلها رعدةُ الخوف، تلتمُّ ما بين نهديك،
واسمى المكدسُ بين السلاسل والجسد
المتفصدِ بالعنبر الحىِّ يخطف وجهى،
ويطحنه ثم ينثره فى الشظايا
فمن يفتدينى وقد كومتنى سلاسلها،
من يخلص أسماءَ وجهى وينثرها حرةً كشموس
الينابيع فى العنبر الحىِّ أو كالطيور الشريدة فى
العشب والخضرة الغامضة!

مددتُ يدى.. لن يبعثرنى فى تضاريسها غيرُ كفىَّ
وغيرُ انفراطى دماً تحت حنائها واحتشادى طيوراً
مهاجرةً بين أحراشها ومعششةً فى حواسٍ
الدم الخمس عاليةً فى القباب وهاجعةً فى
الزوايا المضيئةِ بالخضرة الغامضة.

مددتُ يدى.. وابتدأتُ منادمةً تجدلُ الدمَ والماءَ
بين العروق المليئةِ باللبن الحىِّ
ـ : بينى وبينكِ فيضُ وجوهٍ مقنعةٍ تتصاول تحت
اغتربات أسمائنا كى تجئ.
ـ : وبينى وبين وجوهكَ هذى السلاسلُ، فانظرْ
لنفسكَ، لو كان ما لم يكنْ لانتهينا إلى البحر
واشتبكت من خطانا البداياتُ
ـ : لو كان ما لم يكن لاستفاضتْ بنافورةُ البحر:
أنتِ الكهوفُ العميقةُ والطينُ والخضرةُ الغامضة
ومن جسدى يبدأ الخلقُ، من جسدى يتقشر كلسُ
السراطين تلتفُّ تحت الرخام القواقعُ، من

شهقتى سمكٌ تتفجر ألوانهُ،

وقصائدُ من صدفِ النارِ والفضةِ

- : انظرْ لنفسكَ.. بينى وبين وجوهك هذى

السلاسلُ، والأرضُ بينى وبينكَ مهرةُ رملٍ

وصرخةُ ماءٍ تجاوبُ فى الليل والريح..

فانظر لنفسكَ

- : يا امرأةَ الخضرةِ الغامضة

تكتبيننى على التراب فتبعثره الريحُ، وأكتبُ الترابَ

عليكِ وأدفنُ نفسىَ فيه حضارة عشقٍ مطمورةً

تنتظر الحفارين وتنتظر ميقاتَ الانكشافِ

للشمس والريح وقراءةِ البشر

أتدلى اسماً منقوشاً متكرراً تلاعبه زهرتا

العسلِ على النهدين

وبين بعثرة الريح ورقص الرضاعة ولدٌ يصرخ

صرخةَ المجئ المؤجل أو المجئ المستحيل أو

المجئ المحتمِ.. لا فرقَ

فعقلى علىَّ أنتِ

- :«هناك أحلامُ الرقودُ أولى بها»

- :وهناك يقظةُ النومُ أولى بها

وهناك حضورُ العينىُ والوهمُ أولى به

وهناك مستحيلُ الدمُ أولى به

وهناك جنونٌ نحن أولى به

فخذى مما تشائين لما تشائين

ولتكنْ مشيئةً واحدةً تعقدها ملامسةُ

الأصابع أو وشيجةُ الدمعِ المطمئن.

تَقَسَّمك العشاقُ وأنتِ واحدةٌ

أمْ أنتِ العشقُ لكلٌ منه ما يستطيعُ من

رزقٍ وما يقدرُ من احتمال!!

تعددت الأحوالُ والطريقُ واحدٌ

وتكسرت الديمومةُ مواقفَ والقطيعةُ

واحدةٌ وحصارُ السّوى غلوب.

فهل نحن أضدادٌ فى اللغة أمْ لغةٌ فى الأضداد!

وهل نحن المجازُ العلاقةُ أم نحن اكتمالُ

العلاقة فى المجاز والسرُّ بيننا غرغرةُ الشهادة!!

همو ضربوا موعداً وضربنا لهم موعداً
وهو الخضرةُ الغامضة
تشكيتِ من وجع الطلْق أم مطرٌ جارحٌ
يتخدَّد وجهكِ!!
هذا توقدُ وجهكِ بين الضلوعِ
وهم عبروا واحداً واحداً وأنا آخرُ العاشقين
وهذا رغيفُ المواثيق بينى وبينكِ،
والعهدُ:
هذا البلاءُ الثقيلُ
وهذا البكاءُ البديلْ
وأرضُ البلاد التى نسجتنى خطىً من دمٍ،
والجيوشُ الغريبةُ تبرقُ أحداقها فى
المخادع والليلُ ينْسلُ خيطَ التذكر فى الصحو والنومِ..
فالأفقُ من قلفِ الشجر المتشققِ فى الدمع،وجهى
عجينُ الملايين من أمهات القرى..
أتخمَّر فى الحلم.. ما من يدٍ أتكسرُ فيها
وأفتح رائحةَ الخبز غير يمينكِ

يا امرأةَ الخضرة الغامضة

وكلُّ دمٍ آيةٌ،

جسدٌ عنبرٌ وأقاليمُ ماءٍ، وطفلٌ عصىّ الولادةِ

يكتب أسماءه بين حجرىِ وحجركِ،

والأرضُ ناقةُ هوَ دجنا المستحيلْ

وطائفُ برقٍ يكلمنى وأكلمُ وقدته

وانفراطكِ بين يدى الدليلْ

وقد ضربوا موعداً وضربنا لهم موعداً..

للتخوم خطاها.. تضيق وتتسعُ الأرضُ،

هرولةٌ للأقاليم يمتلئ الحلم فيها بما يشتهى

مرةً ملكوتٌ

وأخرى سديمٌ يناوشُه العصفُ

والليل ينْسلُ خيط التذكر، تنحلُ منى العُرى،

الفجر ينسجه عنكبوت الترقبُ..

لا أصدقاءَ يجيئون،

صوتُ الخطى أتعرفُ فيه على صاحبى الموتِ أو

عسسِ الظلمات وهمهمةِ المخبرين وراءَ النوافذِ،
نارُ القبيلة في القلب.. تعلو فيأوى إلىّ من
الوحش أنسٌ أنيسٌ وتأوى القوافى
ويزّاوجُ الطيرُ، من مُحكم الآى تعلو التراتيلُ ينبجس
الماءُ والدمع، رائحةُ الخبز تصعد من جسدى..
أتكسّر بين قصاع الثّريدِ
وأنحلُ فى الخضرة الغامضة
وهم ضربوا موعداً وضربنا لهم موعدا

ـ : ولكَ الوقتُ.. فابدأ زواجَ العشيرة بالطقس
ولتحتملْ من ملائى نصيبكَ، ولأحتملْ من بلائكَ
خذ من صوانىَ أحزمةً للرصاص، خرائطَ للوقت،
قائمةً الحركيين، أو سمةَ الخضرةِ الغامضة
لكَ الوقتُ.. فابدأ زمان القبيلة..
ـ: هل عقدتْ بين أعضائنا رجفةُ العهد؟
هل موثقٌ أفتديه وهل موثقٌ يفتديني؟
ـ : استمعْ.. إنهم فى الشوارعِ.. فاخرجْ

ـ : وهل يتبجسُ وجهى من بين نهديكِ، تلتمُّ
من نمنمات الشظايا ورقصِ السلاسلِ أربعةُ الأُحرفِ؟
ـ اخرجْ

هو الليل.. صحوُ الإرادات فى الكون، سجادةٌ
يتنفس فيها اشتباكُ الخطوط مشاجرةُ اللون فى
اللون.. كان الرصاصُ يشجره بالزخارف
والأرضُ تنبضُ مخلوعةً فى الإضاءات
وهى مؤرقةُ الخضرةِ الغامضة
تهاجسها الخطواتُ، تصادى النداءاتُ،
تسترق السمعَ.. أىُّ دمٍ يستغيثُ
وأىُّ دمٍ يستفيضُ وأىُّ اختداعٍ حبائلهُ
انعقدتْ عقدةَ الصيد!!
تسترق السمعَ.. أىُ صراخٍ يمسّحُ أطرافَه الهالكاتِ
على جدرِ الدور!!
والأرض تعلو وتسقط بين الإضاءات
والنارُ تأكل أطرافها وهى تنصتُ..

«نقرٌ خفيفٌ على الباب»

ـ : مَنْ؟!

ـ : كلُّ شئ يعودُ إلى حاله.. وأنا قدْ تكلّفتُ حَمْلَ
وصيتهِ وأماناتهِ

ـ : لا أصدقُ

ـ : هذى ملابسه ثقبتها الرصاصاتُ وانتشرتْ
فوق خضرتها بقع الدم، أحزمةُ الجلد،
أوسمةٌ، وتعاويذُ وجهكِ

ـ : هذى رصاصاتهُ فى اكتمالِ عناقيدها،
والرصاصاتُ ثقبنَ قمصانه من وراءٍ فهلْ..

ـ : لاتقولى.. فقد كان يرحمه الله من أصدقائى
يكاشفنى وأنادمه وعقدنا المواثيقَ.. لكنه..
لست أدرى لماذا وكيفَ..
لقد مرَّ ما مرَّ.. قولى.. ألسنا نرى مولدَ
الملكوت بأشكاله من سديم المواثيقِ؟!
فانتظرى.. سوف أنشئُ من ملكوتكِ ما شئتِ..

ـ : ما اسمُكَ؟!

ـ : أسماؤنا الحركيةُ واحدةٌ

فاسمعى أولَ الشعر فيك:

أنا آخرُ العاشقين.. إلخ.

دمٌ نافرٌ يتوامضْ من ظمأٍ

ويسيل مسيلَ الغزالات فى العشب

يعلو ويرفع منديله فوق أعمدة الصبح،

تمشى به الريحُ، يأخذُ بيتَ الإقامة فى لهجة الفاصلة.

دمٌ نافرٌ والكتابُ يكفكفُه ويخيط به سرجَ الخيل

ينفثُه فى القرابة يعقده ثمراً وعناقيدَ

مخبوءةً.فى كلام النعاس.

دمٌ نافرٌ فى الكتاب

وأنت تنادمه وتؤاخيه بعد انفضاض الصحابْ

وبعد فرار رعيته رهبًا

وامتلاء فرائصها رغباً

والبلاد مدى للصدى

وأنت تنادمه.. مرةً بالتحامك مشتبكاً فيه

بالغضبِ الجلفِ أو صارخاً بين أصدائه

عله يتكشف عن وجهه فى المدى

اللغويّ ويفتح نبعَ القصيدة.

تنادمه أنتَ.. وهو يهزّ بأعمدة الصبح منديلَه

اللهبىّ، وتنظر..

هل جسدٌ حطبٌ هذه الأرض!!

ها أنت تَزْوَرُّ عنهم وتبدأ:

قمصانك انفتحتْ عن عراها

فلاذ بك النخلُ والطميُ،

وهى اشتكتْ وجعَ الطلق وانهمرتْ

وفوق خضرتها الغامضة

سحائبُ مثقلةٌ، واستجاشتْ دماءُ السلالة..

٢٣/ ٣/ ١٩٧٩

من ديوان «أنت واحدها وهى أعضاؤك انتثرت»

محنةٌ هى القصيدة

«ولقد نرى تقلُّب وجهك فى السماء»

غيمةٌ من رقعِ الماءِ الفضاءِ الدُّخنةِ الباهتةِ

التفّتْ على مغزلِ شمسٍ ورياحٍ.

ورماديٌّ نسيجٌ فككتْ عروتَه حدوةُ طيرٍ ليس

ينقضُّ ولا يعلو،

اهتراءات رقيقاتٌ تبعثرن وفى هدابهنّ

اشتبكَ الشوكُ المضئُ القنفذُ الساطعُ يرعى،

عنكبوتٌ ذهبٌ يقطرُ منه الأرجوانُ.

الليلُ فى آخرةِ السهل عصافيرُ ينفضنَ عن

الريش بقايا القطر أضغاثَ النباتات

هباء الذرِّ والغبشةِ، يسلمنَ المناقيرَ

إلى دفــء الجناحين.

النهارُ التمّ فى أعضائهِ واصّاعدتْ شيبتهُ من

تحت حناءِ الذرى،

الصخرةُ تأوى للنعاس الرطبِ والهوةُ تثّاءبُ

والقرية جروٌ مرحٌ لاذ به النومُ البعيدْ.

رجلٌ، وامرأةٌ تفتح فى عروة ثوبيها الشفيفينْ

بخوراً ولباناً زاكياً، تفتحُ فى الطوق هلالاً

خفقَ نهدين، حفيفَ المخمل الناعم بالحلْمةِ،

والمرأة تمشى خضرةً معتمةً فى

هودجِ الليل ويمشى الرجلُ النائمُ يقظانَ،

يدان انفتحتْ بنهما عشرُ عيونٍ يتواشجن مياها

وارتعاشاً ودماً تصهل فيه الخضرةُ الدافقةُ.

القمح ريا للركبتين، اخضرت الطينةُ،

أوراقُ الشفاه اصاعدتْ عليقةً عطشى،
اقتراب، قبلةُ توشكُ..
عقدُ الكهرمانِ اساقطتْ حباتُه وانتثرتْ
تومض ما بين النجيل الغض تهوى
ظلمةً لامعةً بين الشقوق.
انفتحت ذاكرةُ الطير، جناحٌ دافئ ينبتُ ما
بين الحواسِ الخمس، عشٌ لجثوم الهدأةِ
الخالقةِ الأرضَ، وإغراءُ الشقوقِ السنبلَ،
الذاكرةُ انصبتْ بما تحمل من إرثٍ وليلٍ
ذوبانِ الخلق فى الخلقِ انشطارِ الخلقِ
فى أعضائه.
أقعتْ وأقعى
عيْنا يلتقطان الكهرمانَ
اشتبكَ الماءُ بحلم الأرض فى
عشرِ لغاتٍ حيّةِ العنّابِ
قمحٌ تنطوى أعوادُه الهشةُ، قشٌ،وبشاشاتٌ

تكسرنَ، وعرشاً يفسحُ الهيشُ،
اشرأبتْ بهجةُ الجوقةِ بالعشبِ
الأناشيدُ تناوشْن، السماء اتسعتْ
والأنجمُ ازدانتْ بما يرسمه الكحلُ عليها
ازدهرتْ عليقةُ القبلةِ،
صلصالٌ - له النعمةُ والمجدُ - ارتوى،
تحت اللسان احتشدَ الطيرُ وكعكُ الأقرباءِ
السكرُ الذائبُ فى ماء الشّعيرِ،
احتشدتْ فى نكهة الحلم حروفُ المدِّ والقصرِ

وصلصالٌ - له النعمةُ والمجدُ - على يابسة
العرش وقوس الأفقْ والماءِ استوى

(يفتحُ جبروتُ الصخر مسالكه
والحجارةُ تخرُّ صعقةً
فهل لامستها شفافية اكتساءِ العظام باللحم

أم تتنزلُ الدهشة من سماواتها العلى

في صيحة كالصاعقة المرسلة!!

الجسدان ينبعان وتتسعُ بهما حدودُ الأرض

ويزّحزحُ الأفق

حنانٌ كأنه الخوف

ورحمةٌ كأنها جيوشُ الشجر وخيولُ

القرابة الصاهلة في ذاكرة المسافر

جسدان هما الأرضُ بما رحبتْ

وأرضٌ هي المسافة المقدسةُ بين

العبارة والعبارة

إقامةٌ في القول هي السفرُ على

أطواف الذاكرة العالقةِ بجريان النهر

ودوران الريح

والمندفعةِ بين جزُر الرغبة القاسية في

أن يُكتشفَ المُكتشف

وفى الامتلاء بالجرأة المتوهجة على قولِ
ما قيلَ مجدّدا
وضربِ الخيمةِ فى متردمِ القصيدةِ
وباديةِ الحُداء..)
نجمةُ الصبح على وشكِ الطلوع/ بين ماءيْن،
السحابُ الأصهبُ الأشهبُ أقدامٌ من
السعى الهيولىِّ على وجه المياه/ خطوةٌ
هائلةُ الوجهةِ
ماءٌ كلُّ شيءٍ
كلُّ شيءٍ ليس ماءً،
جسدُ الأرض فتوقٌ رخوةٌ ينهمر السعى
الهيولىُّ عليها بالسحاب الأشهب الأصهب،
قطعانٌ توالى سيرَها المحتشدَ الذائبَ فى
غرينها الريحُ على وجه المياه/ وجهةٌ هائلةُ الخطوة:
كانت رقصةُ الريح دواراً قلْباً يربط
بين الأفق والطين،
فضاءاتُ الرماديِّ النسيج انفحستْ

يعبرها وهجُ الإضاءاتِ،
أنارٌ أفرعٌ
أم غابةٌ من كل زوجين؟!
وهل هذا الفضاءْ / سيرةَ للشجر المقبلِ،
مرمىً لرشاقات النبالِ، الصيحةُ المرسلةُ
الرجع وإيذانٌ بوقت الفتح؟! هل
هذا الفضاءْ/ قبةُ الرحمة بالخلق أم
الأمةَ قوسٌ ودمٌ ينزف من
أجوازه مداً وجزراً، شهقةٌ
سوف تكون الشهداءْ؟!
أمةٌ مستورةٌ هذا الفضاءُ القبةُ؟!
الأرضُ الخلاءْ/ خطوةٌ فى الفلك
الدائرِ والنارُ المواقيتَ؟!
كلامٌ تحته تذّاوبُ الأنجمُ والشمسُ
وأمداءُ الجلاميدِ ولا يحمله غيرُ القصيدة؟!
رجلٌ، وامرأةٌ تفتح فى الطوق هلالَ الوجع
الأخضر، فى عروة ثوبيها الشفيفين الرضاعاتِ

إيقاعات الوقائع الخنومية

«اللهُ يعلمُ أنى لا أحبكمو
ولا ألومكمو ألاّ تحبّونى
لو تشربون دمى لم يرْوَ شاربُكم
ولا دماؤكمو جمْعاً ترويٌنى»

- ذو الأصبع العدوانى -

كيف هناك:
يتنخَّلُ الوطن فتيتَه الطالعين من عكارةِ
البلهارسيا وصممِ الأمية وحيوانية الجوعِ
ورهبةِ العبيد وطاعةِ الإماءِ وجبروتِ الوحشِ،

ثم ينتقى:

أجسادٌ قُدّتْ من صخرة واحدة على قالب وحيد

فلا استثناءَ فى شىء

وجوهٌ مسفوعةٌ بصفرة الشمس المعتلّة

وغبار الأحذية

عيونٌ تختلط فيها حُمرةٌ بصفرةٍ براووق البُنِّ المتخثّرِ

ولا يشبهها شىءٌ إلا عيون الكلاب الميتة فى

مجرورِ النهر ومستنقعات النَّتَنِ الدهرىّ

كأن «خنوم»(١)، كان يدّخرها فى فواخيرِه الأزليةِ

حرساً سرمدياً لفراعنة كلّ الدهور

وسوى خنوم لا آلهة هناك!!

ـ: ما الأسماءُ الصريحةُ لرفاقك الإرهابيين:

سقراطُ وابنُ رشد والسَّمندلُ(٢) والنفرىُّ

وأورفيوس(٣) والسعلاةُ(٤).. إلى آخر ما وجدْنا

فى أوراقك من أسماء حَرَكيَّة؟!

ـ:............

ـ: سنعرف كيف تنطق حين نواجهك باعترافاتهم

صوتاً وصورةً..

وحين وُجهت بتقارير المخبر أفلاطون،

وجدالات التهافت...

ومناهج الأدلّة، ونارِ الطقْسِ

المبدىءِ المعيدِ، وبشارةِ الإيذان بالوقت،

والملابسِ الداخليةِ لأوريديكى (٥)، وزَمْزَمَةِ

السّفادِ فى بوادى الجنّ،

وسمعتُ تسجيلاً لصرخات الهلع من زرقاء اليمامة..

اعترفتُ بأدَقّ التفاصيلْ..

-١٠-

العنكبوتُ كأنّه وَرَلٌ (٦) يدبُّ إلى مراعى الضأنِ،

خيطٌ من شعاع الشمس يقْطعه إلى نصفين،

فالأطرافُ تنبض بالدم القانى وتترك نقشَ

رقصتها الذبيحةِ فى سقوف الأرضِ،

نسيجٌ هلهلتْه الريحُ فى أفق البلادْ

كان المماليكُ العتاة الأقدمون المحدثون

يتنزلون خلائفاً من هيَلمان الجوع والفوضي،
وفى أفق المدينةْ
نافورةٌ تعلو وتنفسح امتدادات الهواجسِ فى
انتشار رمادها فى الريحِ،
والأجواءُ تَبْرُقُ،
هذه الشمطاءُ عاريةٌ.. تفحُّ جدائلَ الدخّان والحيّات..
هذا المِغْزَلُ الكونى من نُذُرِ القيامةِ أمْ
هوالعصف الذى تنْحلُّ فيه الروحُ والرؤيا
وتَنحلُّ البلادْ
جميزةٌ تَتَغَاصَنُ الأهوال والكسَفُ المضيئةُ والظلامُ
بشكلها الممتدِّ فى الآفاقِ؟!
هل كانتْ بلادكَ أمْ جنونكَ - هذه - ؟!
أم أنت من فجرِ الخليقة لازِبُ الطين المقدَّرِ
للغوايةِ والجنونْ
متقلِّبُ الأشكال بين يدىْ «خنومٍ»،
طالعٌ من وَقْدةِ الفاخّورة العظمى،
ومُصْطَفٌ صفوفاً كلما بلَيتْ أعيدَتْ فى براحِ

العصفِ والخلقِ الرّميمِ المستَعادْ؟!

ـ: اخلَعْ ثيابك..

(لفحةُ الخوفِ المشوّشِ بالحياءِ وزمهرير الفجرِ،

صفانِ خنوميان تلمع فى أكفّهما عصىُ الخيزُران

وحارسان يصلْصلان برجفْةَ الجنزيرِ:

كلبٌ فى علوّ البغل يقْعى، آخرٌ فى

هيئة الوحش الخرافىّ اشرأبّ..)

... أدرْ إلى الجدران وجهكَ.. لاكلامَ ولا تلفُتَ...

(لا كلام سوى دَوِىِّ الإرْثِ من

ليل القراءةِ فى دم التعذيبِ، والهولِ المؤبّدِ

فى بلادك والخنوميّين فى منفى التواريخِ التى

أَبْقَتْ دم القتلى يبيدُ ويُستعادْ.

هل كلُّ مجدِك يا خنومْ

هذى الدُّمَى الفخّارُ تذْروها الهشاشةُ فى

رياح السجن والتعذيب من جيل لجيلْ

حشداً يكسِّر بعضُه بعضاً فلا يبقى سوى

دِمَنِ الوجوهِ ورهْزَةِ الغوغاءِ والأممِ الطلولْ!!)

حَدَّقْتَ فى وسخ الزجاج فروَّعتْنى نظرةُ «الشخص» المحدِّقِ، عنكبوتُ
ملهمٌ فى الركن يبنى ثم يهدم
فى انتظار الصَّيْدِ.
(أىُّ فراشةٍ سترفُّ أىُّ ذبابةٍ ستحطُّ مثل
دمى المخثَّرِ فوق منسوج الجوارح والعروقْ!!)
فى نوبة البوق النحاسىِّ استجاشتْ رهبةٌ بين المفاصلِ..
ـ: إنه «الباشا» وبوقُ الصبح فى عَرضِ التَّمامْ.

-٢-

شعبٌ خنوعىٌّ، وجيشٌ مشتَرَىً من صيد نخَّاسين،
والباشا يقدِّم فى رَطانَتِهِ جَلَائبَهُ(٧):
الطواشىَّ، القضاةَ المخبرين، السادة الخصيْان،
أعيانَ التَّسوُّلِ، جنْجلُوتَ المنْبرياتِ الزوانى،
البَزْرميط (٨) المدَّعَى..
درعٌ من الشرق المفتَّتِ
والسيوفُ مباعةٌ كىْ يملك الغربُ الرقاب

بين الرُّميْلَة وانفساح القلعةِ انتشرتْ وحوشُ الطير..
(إن دم الذبائح يستثير الطير قبل ملاحم الموتِ)
البنودُ على رؤوس الجندِ
(هل يدرى الخليفةُ أن هذا السيفَ مُرْتَهَنٌ: مَعَهْ
زمناً وأزمنةً عليه!!)
-: طأطىء ولا تنظرْ وراءَكَ واحتبسْ أنفاسَكَ..
(الزمنُ انفجارُ الرعبِ.. هل سيمزِّق الكلبان
لحمَكَ من وراءِ أو أمامْ!!)
فى الركن.. كان العنكبوتْ
من مغزل الدَّأَبِ المجنَّحِ بالغرائز وانتظار الصيد يبنى ثم يهدمُ
(هذه كانتْ حدودُ «العبقرية فى المكان»:
سجنٌ وجلادون، أدْوارُ الخنوميين ما بين
الهزائمِ والخرابْ
فى الأرض من أقصى غواياتِ
القناصل وابتياع السيف حتى الموت
فى ختْلِ الكلامْ)

- ٣ -

ليلٌ وكأسٌ من دم الموتى ترُبُّ به البلادُ رفاتها،
ورخامُ عرّافين ينشر من جعارين الكتابة جيشه السحرىَّ
فالطينُ المقدَّرُ فوق نارٍ من تعاويذِ الرُّقى يغْلى
وينضجُ لحمهُ الدهرىُّ جارحةً فجارحةً
فيصطفُّ الخنوميّون
(هل يدرى الخليفة أن هذا الحشدَ مُخْتَلَقٌ
وأن السيفَ مرتهنٌ: معَهْ
زمناً، وأزمنةً عليه؟!)
الشمسُ جمرٌ ذائبٌ فى أعين الموتى،
فلا استَلموا ولا طافوا ولا انْتَسبَوا لزُمْزَمَةِ السلالةِ
فالجزيرةُ صفْصَفٌ والرملُ مشوىٌّ،
سرابٌ من دم الفصحى يرف على مياه البحرِ،
ترتيلٌ من الملح العصىِّ يؤجُّ فى لحم المصاحفِ
ثم يبَرُقُ فى انْدلاع الحيرِ
ثم يدبُّ فى رمم القراءات الحريقْ
ويُعفْرِمُ (٩) الباشا ويضحكُ،

ثم يبتعثُ البريدَ على ظهور الخيل بالبشرى
(فهل يدرى الخليفةُ أن هذا النصرَ أولُ ذَبْحه!!
ضَرِيتْ (١٠) كلابُ الصيد فانتظر المواسِم..)
عَفْرَمَ الباشا وقَهْقَه..
والخنوميّون محضُ فكاهةٍ حُبلى بشمسٍ
من صديد الجرح، ينسلّون عبر البحر والصحراءِ،
ينتشرون في جوع القرى كالقَمْلِ والبلهارسيا
والنهرُ موالٌ من الدمع المقَطّرِ فى الظلامْ..

-٤-

ضَرِيَتْ كلابُ الصيدِ..
صيادون من كل البلاد تحلقوا
فوق الحشايا والزرابىِّ الدِّمَقْسِ:
حثالةُ الماسون، تجارٌ وجواسيسُ القناصل،
باعةُ الوهمِ، السماسرة، المرابون، الحجيجُ
وثُلَّةُ التجوال بالسم البطيءِ،
وشيشةُ الباشا تكَرْكرُ أو تُعَفْرِمُ تحت تلِّ الجمرِ

والتّمباكِ وهو على الأريكة غائبٌ في
حلمه الأميّ بالجبروتِ والسلطانِ..
حاشيةُ الحثالة في طقوس الصيدْ هرَاجون بالفوضي
ومحبوكون في لغْوٍ من الزور المصَفَّرِ،
إن فيض السوق منْدَفِقٌ:
طرابيشُ العبيدِ، ويَشمْكُ السّبى البغيِ، ومَسْبَكُ
الفولاذ، والبارودُ ، سمسرةُ التراجم، خطةُ الحربِ،
الطّواقمِ من قيادات الكتائب والسفائنِ..
جنةُ الإستبرقِ البرسيمِ، والخيلُ المطهمةُ الصهيلِ،
وطينةُ الوادى استْجاشتْ تحت شمس الجوع والخَبَل الخنوميّ..
الحثالةُ والجلائبُ والجواسيسُ القناصلُ قادةٌ للزحفِ،
تخبو شيشة الباشا فيُهرَعُ أمردٌ بالجمر والتمباكِ
وهو مُعفْرِمٌ ومكركرٌ بإشارةِ الحرب الدنيئة..
والخنوميون أوْبئةٌ وجوعٌ بين وقْدِ الرمل في
آسيا وبين الثلج فى البلقان..
ياربي أمانْ..
كانتْ جعارينُ الكتابة والرُّقى ينحلُّ فيها السحرُ والنفْثُ الخنوميُّ:

الفلولُ وآخرُ الموتى وقطعانُ الخنوميين ترجع من
ظلام النصر والفوضى إلى الوادى وماء النهر
ثم تُعيدُ سيرةَ طينها دهراً فدهراً..
آه يا ربى أمانْ..
ـ: البَسْ ثيابَ السجن، لا تنظرْ وراءَكَ.
لا كلامَ ولا تلفُّتَ..
(لا كلامَ سوى دوىٍّ إلارْثِ من ليل القراءة فى
دم التعذيب والهولِ المؤبَّدِ فى بلادك والخنوميين
فى منفى التواريخ التى أبقتْ دمَ القتلى يبيدُ ويُستعادْ..)

معتقل طرة ١٩٩١/٣/١٣

رملة الأنجب ـ القاهرة ١٩٩٣/٤/٢٦

إشارات :

١- خنوم: إله صناعة الفخار وتشكيل الطين فى مصر القديمة

٢- السمندل: حشرة خرافية يقال إنها تعيش فى النار

٣- أورفيوس: شاعر أسطورى من تراقيا كان لشعره وموسيقاه أثر سحرى على الكائنات، تشكلت باسمه نحلة وتنظيمات سرية من أهمها جماعات الفيثاغوريين.

٤- السعلاة: حيوان خرافى متوالد من سفاد الجن مع الحيوانات

٥- أوريديكى - أوريديس: حبيبة أورفيوس

٦- الورل: حيوان صحراوى زاحف، يقول البدو إنه يلف ذيله المكون من عقد قوية حول سيقان الأغنام ويرضعها حتى يدميها

٧- الجلائب، الجلب: العبيد والمماليك

٨- البزرميط: عامية شائعة تعنى خليط البشر المهجنين الذين لا يعلم لهم وطن أو أصول

٩- عفرم يعفرم عفرمة: اشتقاقات شخصية من لفظة الاستحسان التركية «عفارم

١٠- ضريت: أصبحت ضارية متوحشة.

فرح بالماء

١ ـ فصل الخبر المقدّم

ألتف بالشمس وغبار المسافات المفتوحة

أغسل جسدى بالقش ورغوة الغضب

وخناجر العشب المسننة

وأفتض أختام الريح وكمون الندى فى البراعم.

يسكن النحل تحت إبطى وبين أصابعى تختبىء

الينابيع الخائفة

والأرض زجاجة تهشم ألوان الطيف وتذيها على

جسدى المعلق بين الجوع والربيع

أمتلىء شيئاً فشيئاً كاليقطين العسلى الأحمر المدلى

فوق أهرامات التراب ومصاطب التحاريق

أنضج بطيئاً

بـ

طـ

يـ

ء

اً

وأفرح بمراهقتى واكتشاف دمى

أتجلى للأطفال كرةً أرضية لامعة تتدحرج

وللطاغية مؤامرةً ملغومة تسعى

وللأحلاس الغاوين لغزا مطاردا

وأنتِ تحت عينى حرث يتكور ويتجوف

لنا المشيئة حيث نشاء

وبين السرتين رغيف ينتظر الوارثين.

وهذا هو الماء والماء والماء
والماء بوابة يفتح الليل أقفالها فتمر الخلائق:
هذه مخاصرة البحر للبحر،
هذا زواج الينابيع، والنهر يسحب محرمة
العرس منقوشةً بالدنانير والعشب.. ينثر أقراطه
وأساوره،
الماء بوابة يفتح الصبح أقفالها:
ها هو الله يلقى تحياته شجرا
وحروفا يطيرها فى فضاء الكتابة/
صفوفا صفوفا..
خلعت قميص دمى.. اشتبكت
من حبائل أسمائه لحظةُ الصيد،
أوقفنى فى مفاجأة السنبلة/
لأستألف الطير، يُختدع الطير لى:
هو البحر يلبس أسورة الأرض
يخلعها، والنساء الجميلات فى جسد البحر يفتحن

اهبطى فى سلام الغيوم البطيئة.. فلتهبطى

سرب الحمائم يدخل أبراج ذاكرتى،

كل ورقاء من نعمة الحرف تجدل عش الكلام.

هذا هو البحر محتشد النوم تحت الملاءات والخضرة العمتة

تلاعبه فى سريرالتذكر شمس الكوابيس والوقت،

والبلاد الفسيحة مرسومة ف يمدارجه:

ها هى الزرض.. زهرية من رماد الهشاشة

منقوشة بالجعارين والخيل، مكتوبة فى شظايا العروش «النواويس» أسماء من ملكوا صولجانها،

فوق فخارها المتكسر ما زالت القبلات القديمة دافئة

والخطى فوق وجه الجرانيت تصرخ

بين حطام العواميد والبهوآلهة تتكلم فى

كتب الصلوات.. استمع:

لى طرق اللحظة الملكية خضراء معتمة أو

مشجرة بالحرير الرمادى والحمرة القانية/

سماء الظهيرة مثقوبة،

ذهب الكون يهوى إلى الماء، والبحر يفتح

قفل خزائنه:

ذهب صاعد

ذهب هابط

والقباب على حافة الماء تخلع قمصان شهوتها الهارية/

وتطلق صرختها.

-: راحل أنت والذهب المتوحش فى

لحظة المد يبنى المدائن يحشد فى الماء

قطعانه المعدنية، يبنى على الماء أبراجه

والحمائم يسقطن من أفق الموت؟!

أم أنت تغسل قمصان صوتك فى كتب

الماءتنتظر البحر تمشى على وجهه وتؤاخى - على

صرخة الوقت والمدن

المستفيقة للموت - بين النخيل المرابط فى

قدميك وبين المسافة وهى تمد طنافسها وترج

على القاع مملكة النوم واللغة العذبة الجامحة؟!

ـ: خلعت قميص دمى.. كل ما فيه أسماء نخل
من الغربة المستفيضة بين الأكف وبين
العيونِ القريبة فى الهمس، أفعالُ موت
مقنعة برماد الهشاشة..
أرحل..
هذا هو الرقص.. أنظره جسداً يتفرع
إيقاعه فى الفراهة والعنف..
ها جسدى يتفكك فى الدهشة المستريبة،
صيَّرنى الماء ماء وألبسْته صرختى..
جسدى جسد البحر.. ما بيننا وردةٌ حية تتفتح
تُغوى دمى بائتلاف الردى والفحولة../
وأرحل.. والبحر عاصمتى وخطاى،
أشاركه شهوات التنقل في جسد الأرض..
هل تفتح المدن المستفيقة للموت أبوابها
للبريد المسافر بينى وبين القبائل بالكتب الجارحة؟!
بطيئاً أُساورها بين قيلولة الهاجرة

وبين الضّباع المطيفة فى الحلم.

ماء،

وهذا هو العرش..

هذا كرسى الإنسان ممدود بين مخاضتى الوطن الواسع،

مسقوف بشملة الليل المرتخية وعواميد النهار الملىء

بتغيرات الظل والنور

هذا كرسى الإنسان.. تعشش فى مخرماته إلى

يوم الوعد يمامه خضراء محجّلة مؤتلقة بالأمومة

أكلمها وتكلمنى

تطيف على وجه الماء

فأنظر:

سيدة يتكشف عنها الزبد ويتفتح المحار.

هوت نجمة فاستضاءت ممالكها السبع،

وانتفضت ناقة الماء منسوجة بالعروق المضيئة،

مر سحاب كثير، وفى الأرض أعجاز نخل على هيئة

الآدميين مصفوفة فى ممالكها،

الغيم يرمى قناديله من فتوق الظلام السماوى،
ينكشف الرمل فى خفة الحلم:
سيدة يتطاير بين ضفائرها سمك البرق والماء،
ينكسر الأفق تحت خطاها.. فتهبط،
فى الأرض أعجاز نخل على هيئة الآدميين
تهبط سيدة الماء والبرق..
ـ: من أى طين شوتَه المقادير فًخارة، أى آنية
أنتِ منها تنضًحت نارا مبللة وترشًحت عضوا
فعضوا
وقلّبتِ بين يدى جنائنك السبع وانعقَدت فى
سريرى براعمك اللهبية حتَى استوينا قطافا دما؟!

١٩٧٥

٢ ـ فصلُ الأركان الملتبسة

للقبيلة نار مرمّدة..
ليس من جوهر النار إلا دمٌ جمرةٌ فى رماد التذكر،
طقس القِرى وشميم الثريدة والبن والهيل صلصلةٌ
فى بقايا القصيدة،
نوم النساء تخطفه فزع الحلم
كانت سماءُ زجاجية وغرابيب سود تدومٍ
كالعصف كانت تدق السماء فتثقبها
والشظايا المدمّاة تهوى ومن تحتها الطير

والخيل أعناقها تتطاير

والنزف يعلو ويعلو.. فيفتحن من صرخة الرؤية الجفنَ:

أرضٌ مدىً يتشقق من ظمأ طال موسمه،

والشموس الخفيضة ترمى الجريد المسفَّع،

والعشب رمل تذرّيه بين المضارب لافحةُ الريح..

خيمه شعر تداولها الخرق والرتق،

شمس الرمادة ذائبة فى احمرار العيون ابيضاض

الشفاه المملحة،

انتبذ الأهل من وقدة الصهد رملَ الجحيم يديرون

أرغفة اللغو بينهمو يأكلون الأحاديث تأكل

أكبادَهم لهجاتُ التذكر، أيديهمو تتلّقط جمر الحصى،

ويخطون فى الرمل يستقرئون الطوالع والقص

يستنهضون العرافات إرثَ القيافة والزجر،

والشمس تدنو جِمالتُها اللهيبة..

هم حمّلونى شموسا تذيب اليرابيع والضَبًّ..

راحلتى ظمأٌ كدّسته التواريخ جوعٌ يؤاكلنى جسدى..

وأنا من زمان القبيلة أصطحب الغول أسمع

زمزمة لاغتلام السعالى مع الجن
أحمل سجْع الأليّة والموّثق الصعب،
والنهرُ وجه الطريدة بين سراب السباسب.

غلبنى الحال واعْتورتْنى واردات الحواس
وعوارضُ المشاهدة،
وكتاب الأرض يتقلب بين التآويل
فألملم من صدأ الحروف قائمَ الأمر وفسحة البصيرة..
للبلاد أطراف مبللة يغمرها الماء:
جدائل محلولة فى البحر تترسب عليها
بلورات الملح الفضى فيشتعل الرأس شيبا
والطمث لما ينقطع
أقدام مرتخية تتناسل بين أصابعها السراطين
والكائنات الهلامية والصدفية
وغراءُ الزواحف المتسافدة والأعشاب المتوهجة..
وبينها وبين الخطوة مسافة دم ولا يجئ.
فم يتقرّح فى شفتيه خُرّاج الكلام وتعشش

الطيور بين أسنانه المفلجة.. وينمو الطحلب

والنخل على بقايا الفرائس

وبينه وبين البلاغ مسافة صرخة مطفأةٍ فى

الذاكرة لا تعلو.

يدان معقودتا الأُصابع تتساقط منهما الحناء

ويقطر الدهن،

فتشتعل غرائز القرش وتشتبك الحبتان حول

الفلذات المتفتتة المصبوغة بالعندم والعناب.

وللبلاد شكل الجسد المسجّى الذى يحمله

فتب من معجون النفط ورميم السلالات

المتخمرة وغائط الكلبيين

تسمل الشمس عينيه:

أوليس من ماء بل أليس من وهم الفرح به بل

أليس من وهم وجوده فى قيعة هنا أو هناك!!

بل ماء وجسد نقيع لا يغرق ولايشرب

هلك الطالب والمطلوب..

تخطّفنى الجند..

قصرُ أبيك على النهر:

أعمدةٌ مرمرٌ يتعرق فيه تداخل لون بلون

وصوت الخطى زجل تتعالى القباب به

والسماوات معصورة تتقطّر بين الثريات

نهر وشمس أسيران فى السقف؟!

قلت: انتهيتُ وما كدت أبدأ..

لم تتلق القبيلة بشراى بالعشب والماء،

وأما من أوتىَ وعْده كظما وأُلقى منه مكانا

ضيقا مقْرنا فسوف تصلصل مقاوده ويصلى

ندما يفرى وحزنا سعيرا وثبوراً..

.. وهم يستقرئون الرمل يخطون ويمحون ولو

يجدون ملجأ أو مغارات أو مدّخلا لولوا إليه وقد

استيأسوا يتضعضعون.

فمن يفتدينى بصرخة مورقة أو عشبة حلم تخضر فى

مراحم التأويل أو غيمة ودق مبشر!!

هلك الطالب والمطلوب..

وقلتُ: احتملْ غمةَ البرمكيين، ليس لها دون

شِعب الجزيرة كاشفةٌ.. فجأة سوف يعلو

غبار الجزيرة ألويةً..

قد تكون دما هامة يتأجل إرواؤها قد

تكون بأفواههم صرخة الفتح..

قلت: احتمل غمة البرمكيين.. قد ثقلت فى

يديك ورجليك أصفادهم وهمو

رغَب طامع يتحشّدهم.. فاحتمل ما

ترى من عصامية للتواطؤ، من

صلف الإدعاء المداهن..

قلت احتمل نعمةً تتقطر من أوجه البرمكيين عافيةً

وامتلاءَ دمٍ وامتلاكا لظهر البسيطة،

فلتحتمل ما ترى من رخاوتهم

وتخلعهم باكتمال الخنوثة والكبرياء

فذلك بهو نواويسهم وهو غربتكُ

المستفيضة بالروع أسْرك فى الظمأ الحجرى

وفيضُ الهواجس عضٌ القيود على معصميك ورجليك..
همهمةٌ للحديد وجائشةٌ للمحبِّك من زرد الجند..
ولّت غواشى التقلب فى المشهد الوحش..
وانشق من فلق الصبح وجهُكِ يدنو
ويدنو كبارقة الغيم فى صحراء القبيلة..
هذا إذن قمر الماء يرسف فى مرمر البرمكيين!!
واصطف خلق كثير..
قلما اشتبكنا دما وافتديْتِ الأسير بهزة رأس
وأوْسعت لى من مقامى وتوجتنى باجتلائك
عريانةً وتكسرت بين ذهولى وخوفى اقتربتُ ابتعدتُ فقد
سطع القسم الصعب من ليل أسجاعه امتدّ بينى
وبينك أفق المضارب وارتفعت خيمةُ الشّعر فى
المحل وانعقدت غيمة من جراد تشظى
تكشّف وشى الزرابى وانحسرت متفتّرة رجفة
الفيضان الحريرى عن حاصب من سماء تهدّمُ..
أهلة فضية لامعة من صوت الخبب قد
سلكتها طرفاً بطرف حوافرُ المهرة،

يتراجع صداها إلى الوراء ولا يتلاشى،
سلسلة ممتدة هى، تربط آخر الخطى بأول
الطريق وشهقات الوداع المسجوع وهمهمة
العرافين وأشكال الكتابة فى الرمل ونقوش
التحاريق المشجرة بالظمأ ورخاوة الموت المعرشٌ
بالرماد وشظايا الشمس وصواعق الغرابيب
المنقضةٌ على الجيف
فكيف والصوت والصدى حلَقٌ متداخل يعلو
ويعلو حتى لينبع من
ضربات القلب ورعدة الجسد الذى يُطوى ويبسط من
من رهب واشتهاء.. فكيف ..
وهل هودج قمر مرمر؟!

١٩٧٩

٣ـ فصل المبتدأ المؤخر

استفاق السيد بغتةَ الرؤية فى نفسه وفى الآفاق.
قال أفليست الأرض واسعة والبلاد مسرى ومقيل!
فخرج من الدمع ولبس إحرام الجماعة،
وتمنطق بوعى دمه وشهوة الشهادة وقوة
الفطرة العارية من كل كسب واستباق
تلك ولادةٌ يعرف طعمَ زنجبيلها ونكهة
قهوتها وسليقة الأحاديث المرسلة
.. تلك سليقة البشرى:

جموعٌ أعين شاخصةٌ

وموج يعلوه موج هو الهاجسُ المنتشر.

صخبٌ واصطفاقُ رايات ورغوة من بهجة

الألوان هو النبأ العظيم المتفلت من

حدود الكلام وشبكة الصياغة الفاصلة.

قالت له صاحبته: عم يتساءلون!

قال: ، لقد مكر الذين من قبلهم فأتى الله

بنيانهم من القواعد فخرَّ عليهم السقف

من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون،

قالت: لا تحزن.. أفليست الأرض واسعة!

قال: فليسقط ما استْعلّوا به وملكوا الأرض

وليدمدمْ عليهم غضب الشعب بما أجرموا

قالت: عذبك صوت آبائك فاسمع لهم سمع الطاعة

وإنهم لرادوك إلى معاد هو طعم القهوة

ونكهة الهيل وشميم الحطب فى نار القبيلة

فأحْكمْ عقدة الكلمة وامتلىء بالمجاز
قال: فإن لم تفض بى الأرض خرجت عليها
ورفعت من خواتل المجاز ما يعرفنى به
أصحابى وأعرفهم
فإذا جاء الوقت امتلأت بنا الشعاب.
قالت: وهذا هو ينتصف الليل
فهل متبِّر أنت ما أحكموا من كيد مهما تكن
الظلمة فولاذا صرحا ممردا أو
بريقَ سيفٍ مشرع من الأقاصى له
مكاءٌ وتصدية!
«لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك.»

-١-

قلت: يا قمر الماء.. بينى وبينك عقدة عشق
تشد عراها سحابة
تنقّل أخفافَها من دمى للفضاء وتُعلى
مقامكَ بين العشيرة فى آخر الأرض.

للأمهات العجائز وشم الأهلة والطير،
أقراطهن دمٌ صدأٌ يتقطر دمعٌ تؤرجح جوهرهَ فى
اشتعال الضفائر بالشيب غابرة من بروق اللواقح.
هذا أنا وانفراطك بين يدى ممالك من
شهوة وارتباك، سريرك متّقد بالعروش الخبيئة
والليل جمر المجرات والحلم،
قلت القراءةُ فى الرمل والضربُ فى
كلمات الحصى والرياح مطاردةٌ ليس
تتركنى فى استتارى بمجد الغواية والعشق..
يصّاعد الشعر بين عظامى غزالةَ شوكٍ
تراكض ركض الصدى فى البوادى وتنزف ذاكرتى:
(هواى مع الركب اليمانين مُصْعد
جنيبٌ وجثمانى بمكة موثَقُ
عجبت لمسراها وأنّى تخلصت
إلىّ وبابُ السجن دونى مغلق
ألمّت فحيت ثم قامت فودعتَ

فلما تولت كادت الروح تزهق

فلا تحسبى أنى تخشّعت بعدكم

لشىء ولا أنى من الموت أفْرق

ولا أنّ نفسى يزدهيها وعيدُهم

ولا أننى بالمشى فى القيد أخرق

ولكن عرتْنى من هواك صبابةٌ

كما كنت ألقى منك إذ أنا مطلق(*)

-٢-

تأوَّلْتُ رؤياى، هذا الجنون الفقير المكدس بالعشق

والمُلك والذهب الدموى ينابذنى جسدا بالمجازات

روحاً بوهج الخلاخيل أسورةً بالقيود تعض على

معصمىَّ، جنون فقير

تأولته، وتكذَّبت رمى الحصى والكتاباتِ فى الرمل

فلينظروا:

---

* من شعر جعفر بن علبة الحارثى - قتل ١٤٣هـ.

ملَكَةٌ أمَةَ فى حبائل عبد أمير

وحوّت من المرمر الأرجوانى يحمل فوق

تعاريقه وزعانفه الذهبية بحرا رُخاءً

وزورق آنية فضة يتهادى على الماء،

بين الفضا والغيوم السرير

تخوّفت أن يعرفونى، تكذبت ما يكتبون على

الرمل، موّهت ما يقرأون

وأقبلت فى زخرف العشق

هيأت من جسدى مثلما يفعل الميتون:

حنوطٌ وطيبٌ يؤخر ما يفضح الموتُ،

أبهة من هويلى وخطو ثقيل، وأقمطة من

شياتٍ، وباذخةٌ كفنٌ من حرير

وأنتِ تألفتنى بوعود القيامة من جسدينا ومن

جسد الوقت، قلبّتنى بين حالين:

حالٍ هى العشق فى مرمر الملكوت،

وحال هى المجد فى ملكوت الجنون الفقير..

-٣٠-

-: أهذا هو العَوْدُ على البدء؟

-: أجل هو العود على البدء

-: كيف وقد أصبحتَ اسما من أسماء الذاكرة

ولأشجارك خشب فى المواقد ورائحةٌ فى

الوليمة التى تتسع لوافدين يتزاحمون!

-: فى البدء كنت - بين أمى وأبى - اسما من

أسماء الحلم وطقسا من طقوس الماء المشمْولة

بغبش الفجر وأباريق الفخار واللبان المر

وبقايا الحناء على الكعبين

وكانت قصار السور تنعقد خيمة على

استئلافات الصبا وإيقاعات الضحى والليل

إذا سجى

هو العود على البدء

الليل والنهار بوابتان على طريق المملكة

أبى عن يمينى وأمى عن شمالى والبلاد تخلع

لهجة الطفولة وتعلو منصةً لكلام الوعد والوعيد

وتمتد حصيرةً للخوف والجوع ومخدةً للكوابيس

والماء جمرةُ التذكر الموقدة

أنفخ فيها وأنظر ما وراء زخرف الصخر

ومرمر المجازات

لأشهد كيف يكون مجد الينابيع المنتفضة.

عقدةٌ من ضفائرك انفرطتْ بين كفى

خامرنى من عصافير حنائها وروائحها طائفٌ من

دوار،

وزلزلة لم تكد تعترينى حتى رأيت سهيْلا

يلامحنى من ذؤاباتها،

والثريا المدلاةُ فوق السرير تؤرجحها سنةٌ من نعاس.

ومرت سحابة

تحلُّ عراها وتفتح أزرارها، استترتْ فى

زجاج السماوات وانكشفت ومضةً ومضةً وهى

تخصف تاجا من السعف الغض،

بين يديها تهب الرمال المضيئة والطير عاصفةً

والمياه تصلصل بين السماوات صلصلة تتقبَّب

ناشرةً في الفضاء البعيد جناحين من ظلمة الفيضان،

فهل ناقةٌ هدرَت فانتبهنا على

مرمر القصر يخلع أقدامه من مواطئها،

القصر يرفع مرساته ويلملم خطوتَه الحجرية

من مقْلع الأرض يرفع أعمدة من

دخان وأتربة تتموج فى الريح؟

هل ناقةٌ هدرت فالرواق المهدَّم يرجف

بالماء يزَلزلُ الهودج الملكى وتهوى

السلاسل فالأرض مفتوحةً لجة؟

أم تأولت رؤياى فانقذت من

سريرك غاشية من جنون المجازات!!

١٩٨٠ - ٧٩ - ٧٥

من ديوان «رباعية الفرح»

زيارة

طيناً من الطين انجبلْتُ ففى دمى المركوزُ من
طبع التراب الحى:
فوْرة لازبٍ، وتخمُّر الخلق البطىء،
ووقدة الفخار فى وهج التجول، وانتشار الذرُّو فى
حرية الحلم، انفراطُ مسابح الفوضى حصىً،
وصلابةُ الفولاذ فى حَدَق الحجارة واليواقيت..
انخطفْتُ بنشوة الحُمى، الأوابدُ من وحوش
الطير تحملنى وتمرق..
فى حواصلها أعاين محنة

الملكوت والأرض الفسيحة..
خفْقة تعلو ورفرفة تسفَ، وبابك الفلَكُ
المدوَّر يا أبى ورتاجُك الطينى والقفل الحبالةُ والشراكِ،
وهجعة الأطيار إن حل الظلام ـ على الشواهد ـ
فوق صبارات قبرك، صوتهن بكل معترك الجواءِ
ومجْتلى الدم والمنام هو النداءات الخفية من
ترابك والمخاطبة العصيّة من ترابى.
صحوٌ هو الفجر المعلّق فى ثريّات القصيدة إذ
أحرك فى ضرام الخضرة الشمسُ التى
صدئت على أقفال بابك يا أبى
ناديتُ فى طقس الزيارة: كيف أزمنةُ التراب
وكيف تنجبل السلالةُ من ترابى
ناديت والفجر المشعشع تحت أجنحة الغراب
يستنْفر الطير الأوابدَ ـ من مجاثمها البليلة بالتذكر ـ
للسياحات العلية فى اجتلاء الأرض والدم
من بداية بابك الطينى حتى
منتهى صوتى المجلجل بالخطابِ..
١٩٨٤

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٩٢٣ / ٢٠٠٢

I.S.B.N 977 - 01 - 8158 -7



لقد أدركنا منذ البداية
أن تكوين ثقافة المجتمع
تبدأ بتأصيل عادة
القراءة، وحب المعرفة، وأن
المعرفة وسيلتها الأساسية
هى الكتاب، وأن الحق في
القراءة يماثل تماماً الحق
فى التعليم والحق فى
الصحة.. بل الحق فى
الحياة نفسها.

سوزان مبارك

الثمن ٢٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب